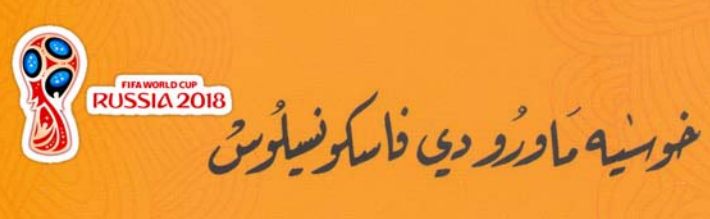
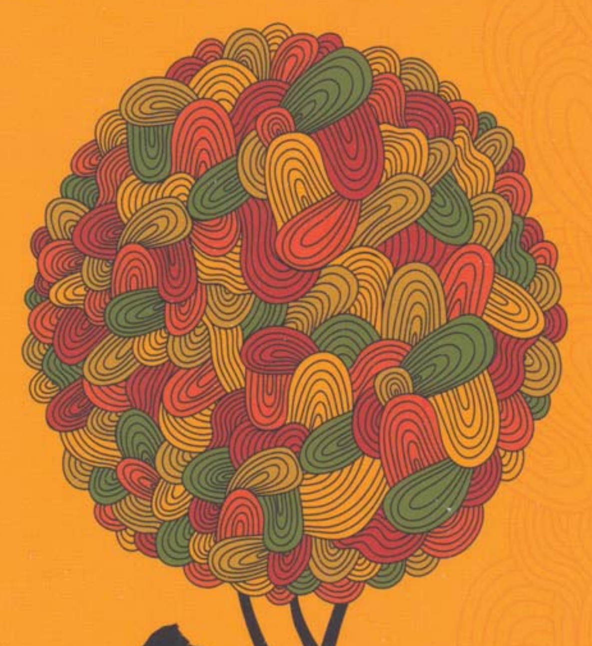


خوسيه ماورو دي فاسكونسيلوس

شجرتي شجرة البرتقال الرائعة



رواية

ترجمة: إيناس العباسي

مراجعة: محمد الخالدي

خوسيه ماورو دي فاسكونسيلوس

شجرتي شجرة البرتقال الرائعة

ترجمة: إيناس العبّاسي

مراجعة: محمّد الخالدي



شجرتي شجرة البرتقال الرائعة

عنوان الكتاب الأصليّ

José Mauro de Vasconcelos

Meu Pé de Laranja Lima

تمّت هذه الترجمة عن النصّ الفرنسيّ

José Mauro de Vasconcelos

Mon bel oranger

الكاتب: خوسيه ماورو دي فاسكونسيلوس

عنوان الكتاب: شجرتي شجرة البرتقال الرائعة

ترجمة: إيناس العبّاسي

مراجعة: محمّد الخالدي

تدقيق: بلال المسعودي

خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة

تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان

ر.د.م.ك: 978-9938-992-71-7

الطبعة العربية الأولى: 2018



مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

إلى الأحياء

سيكيليُو ماتارازو

مرسيديس كروينيس رينالدُو

إريك جيمايندير

فرانشيسكو مارينس

وأرنالدو ماجلهايس دي جيياكوكو

وأيضا إلى هيلين رودج ميلير

دون نسيان «ابني» فيناندو سيملنيسكي

إلى موتاي

تفكيري الحزين في أخي لويس، الملك لويس، وفي أختي جلوريا.

لقد تخلى لويس عن الحياة في سن العشرين وفي الرابعة والعشرين، اعتبرت جلوريا أن لا جدوى من الحياة.

وحنيني إلى مانويل فالداريس الذي علمني، وأنا في السادسة من عمري معنى الحنان...

- ليناموا جميعا في سلام!...

والآن

إلى دوريفال لورينسُو دا سيلفا

(دُودو: لا الحزن، ولا الكآبة، يقتلان!...)

الجزء الأوّل

1

بحثًا عن اكتشاف الأشياء

على مَهَلٍ كنّا نقطع الطريق، يدًا بيَدٍ. كان «توتوكا» يعلّمني الحياة. وكنتُ سعيدًا جدًّا لأن أخي الأكبر يعطيني يده ويعلّمني الأشياء. يعلّمني إيّاها خارج البيت. أمّا داخله فأتعلّم ذلك وحدي من خلال اكتشافاتي. وعندما أقوم بها وحدي أُخطئ، وينتهي الأمر بضرباتٍ أتلقّاها على مؤخرتي. في السابق، لم يكن يضربني أحد. لكنهم اكتشفوا الأمر لاحقًا، وبدؤوا يقضون وقتهم وهم ينعتونني بالشيطان، وبالطاعون، وبقطّ المزاريب اللّعين. لم يكن ذلك يشغل بالي. حينما لا أكون في الشارع أنهمك في الغناء. فمن الجميل أن نغني. وبالإضافة إلى الغناء، كان «توتوكا» يجيد القيام بأمر آخر، فهو يُحسن الصّفير. لقد حاولت تقليده عبثا لكن لم يصدر من فمي أيّ صوت. كان «توتوكا» يحثّني بقوله: هذه هي الطريقة، ولكنني لم أكن أملك بعدُ فمًا قادرا على الصّفير.. وبما أنّني غير قادر على الغناء بصوت عالٍ، فقد كنت أغني في سرّي. كان ذلك يبدو مضحكا، ولكنه قد يكون في غاية الروعة. أتذكّر أغنيةً لطالما غنّتها لي أمّي حين كنت صغيرا جدا. كانت في المغسل[1]، تعقد منديلا على رأسها

(1) مبنى به أحواض مائية مصمم لتغسل فيها نساء القرية الملابس.

لِيَقيها حرارة الشمس وتربط مئزرها على بطنها. ثمّ تظلّ هناك ساعاتٍ وساعات ويداها مُغمّستان في الماء، وهي تصنع بالصابون كثيرًا من الرغوة.

وبعد ذلك تعصر الغسيل وتحمله حتى الحبل. تضعه كلّه على ذلك الحبل المشدود إلى شجرة بامبو. وتقوم بالأمر نفسه مع كلّ غسيل. ولكي تساهم في مصاريف البيت، تغسل ثياب عائلة الدكتور «فولابير» كلّها. كانت أمّي مديدة القامة، نحيفةً لكنها رائعة الجمال. بشرتها سمراء جميلة وشعرها أسود ناعم. وحين تفكّ شعرها ينسدل حتّى يصل إلى خصرها. كان من الممتع سماعها حين تغني وكنت أجلس حذوها لأتعلّم:

يا بحّاري، يا بحّاري
يا بحّار تنهداتي
لأجلك أنت، يا بحّاري
سأقضي غدا...

كانت الأمواج في حالة هيجان
كانت الأمواج تندفع فوق الرمل
ذهب بحّاري
هو الذي أحببته كثيرا...

وا أسفاه، إنّ حب بحّار
هو حبٌّ يدوم نصف ساعة
رفعت السفينة المرساة

وذهب بحّاري...

كان البحر مضطربًا...

ما تزال هذه الأغنية حتّى الآن تشعرني بحزن لا أستطيع فهمه.

دفعني «توتوكا» فانتبهت.

- ما بك «زيزا»؟

- لا شيء. كنت أغنّي.

- أكنتَ تغنّي؟

- بلى!

- إذن لقد أصبحتُ أصم.

هل كان يجهل أنّ بإمكاننا أن نغنّي صامتين؟ لم أقل شيئًا. إذا كان لا يعرف فلن أخبره بذلك.

كنّا قد وصلنا إلى حافة طريق «ريُو-ساو باولو»، حيث تمرّ كل وسائل النقل من شاحنات وسيارات وعربات كارو ودراجات هوائية.

- «انتبه، «زيزا»، من الضروري أن تنظرَ جيّدًا قبل قطع الطريق، تنظر يمينا ثم يسارا. هيّا بنا».

عبرنا الطريق ركضًا.

- «هل أنت خائف؟».

بالتأكيد، شعرتُ بالخوف، لكنني أشرت برأسي نافيًا..

«سُنعيد عبور الطريق مرة أخرى سويًا. وبعدها، سأرى ما إذا تعلّمت».

أعدنا عبور الطريق.

«الآن أنتَ بمفردكَ». الآن ستعبر بمفردك.

خفق قلبي بطريقة أسرع.

«هذه هي اللحظة. انطلق».

اندفعت دون أن أتنفّس تقريبا. انتظرتُ قليلًا وأعطاني الإشارة كي أعود.

«بالنسبة إلى المرة الأولى، كان هذا جيّدًا جدًّا. لكنّك نسيتَ شيئًا: عليك أن تنظر إلى الجهتين، وتتأكّد من إمكان وجود سيارة قادمة. لن أكون هنا دومًا لأعطيك الإشارة. عندما نعود سنتدرّب ثانية. أمّا الآن فلنواصل طريقنا فأنا أريد أن أريك شيئًا».

أخذ «توتوكا» بيدي وانطلقنا مجدّدًا بهدوء. كنتُ منشغلَ البال بمحادثته.

- توتوكا.

- ماذا؟

- هل نشعر بسن الرشد؟

- ما هذه الحماقة؟

- العم «إدموندو» هو من حدثني بذلك. قال إنّني مندفع وإنّني سأبلغ قريبا سن الرشد. ولكنني لا أشعر بأي اختلاف.

- إن العم «إدموند» مغفل. يقضي وقته وهو يحشو عقلك بالحماقات.

- ليس مغفلا. إنه عالِم. وأنا حين أكبر، أريد أن أكون عالما وشاعرًا وأريد ارتداء ربطة عنق على شكل فراشة. وسوف أجعلهم يلتقطون لي صورة بربطة عنقي.

- ولماذا ربطة عنق على شكل فراشة؟

- لأنه لا يمكن للمرء أن يكون شاعرا دون ربطة عنق على شكل فراشة. فعندما يريني العم «إدموند» صور الشعراء في المجلات، أجدهم جميعا بربطات عنق على شكل فراشة.

- «زيزا»، توقف عن تصديق كل ما يقوله لك. إنّ العم إدموندو نصف مجنون، وهو كذّاب إلى حدّ ما.

- إذن فهو ابن ...؟

- اسمع، لقد سبق وأن تلقيتَ ضربات على أنفك لتفوهك بكلمات نابية: العم إدموندو ليس كذلك. لقد قلتُ لك هو مجنون، نصف مجنون.

-لقد قلتَ إنّه كذّاب.

- لا علاقة لهذا بالشتيمة.

- بلى. في ذلك اليوم، تراهن أبي مع السنيور «سيفيرينو»، ذاك الذي يشاركه لعب الورق، وقال في شأن السينيور «لابُون»: «هذا العجوز، ابن القـ...، كذّاب وسخ ...» ولكن لم يضربه أحد على أنفه.

-يستطيع الأشخاص الكبار قول هذه الكلمة، فلا قيمة لها.

خيّم الصمت.

«لكن العم إدموندو ليس... ما الذي تعنيه بالضبط كلمة مجنون، توتوكا؟».

قام توتوكا بتدوير إصبعه على صدغه.

«لا، هذا ليس صحيحًا. إنه طيب جدًّا، علّمني أشياء كثيرة وإلى حدّ الآن لم يضربني على مؤخرتي سوى مرة واحدة لم تكن موجعة كثيرًا».

وثب توتوكا .

-ضربك على مؤخرتك؟ متى؟

- يومَ تحامقتُ، فقد أرسلتني «غلوريا» إلى «ديندينيا». هو، كان يريد قراءة الجريدة لكنه لم يجد نظاراته. كان يبحث عنها في كل مكان ساخطًا. استجوب «ديندينيا»، بلا طائل. وقام الاثنان يقلب المنزل رأسًا على عقب. إذّاك قلتُ إنّني أعرف أين كانت نظاراته، وإنّه إذا ما أعطاني بنسًا كي أشتري كُجّات، سأخبره بمكانها. ذهب للبحث عن بنس في سترته قائلاً «اذهبْ لإحضارها، سأعطيك البنس». فأسرعت لألتقط النظارات من حاوية الملابس المتسخة. فوبخني: «لقد كانت هذه من تدبيرك ثانية أيها الصعلوك». ووجه لي ضربة على مؤخرتي ثم أخذ مني البنس.

ضحك توتوكا.

«تهرع إليهم كي لا توبّخ في البيت ولكنّهم يوبّخونك هناك أيضًا. لنسرع وإلاّ فلن نصل أبدًا».

واصلتُ التفكير في العم إدموندو.

«توتوكا، هل الأطفال متقاعدون عن العمل؟».

- ماذا؟

- العم إدموندو لا يفعل شيئا ولكنه يتلقى المال. إنه لا يعمل ومع ذلك تدفع له البلدية كل شهر.

- وإذن؟

- الأطفال لا يفعلون شيئًا، إنهم يأكلون وينامون ويتلقون المال من أهلهم.

- مسألة التقاعد هذه، مختلفةٌ يا زيزا. نتقاعد عن العمل حين نكون قد عملنا كثيرًا وشاب شعرنا وأصبحنا نمشي ببطء شديد مثلما يمشي العم إدموندو. لكن كفاك تفكيرا في أمور بالغة التعقيد. إن كنت تُحب التعلم منه، اذهب لرؤيته. أما معي فـ «لا». كُن كبقيّة الأطفال. بإمكانك أن تقول لي كلمات بذيئة لكن توقف عن حشو رأسك الصغير بالأشياء المُعقدة. وإلا فلن أخرج معك أبدًا».

كنتُ مغتاضًا ولم أعد أرغب في الحديث. وحتّى رغبتي في الغناء انعدمت هي أيضًا. طار عصفوري الذي كان يغني داخلي. توقفنا وأراني توتوكا بيتًا.

«ها هو. هل يعجبك؟».

كان بيتا عاديا، أبيض بمَصاريع زرقاء، بيتًا مغلقا تماما وصامتا.

«يعجبني. ولكن لماذا علينا الانتقال إلى هنا؟».

- من المريح دائماً الانتقال إلى مسكن جديد.

لاحظنا من خلال السياج وجود شجرة مانغو في جانب وفي الجانب الآخر شجرة تمر هندي.

«أنت الذي يريد معرفة كل شيء، ألم تكتشف الدراما التي تحدث في البيت؟ أبي من دون عمل، أوليس كذلك؟ تشاجر مع السيد سكوتفيلد منذ ستة أشهر وطردوه. ألم تلاحظ بأن «لالا» قد بدأت العمل في المصنع؟ ألا تعرف بأن أمي ستنتقل للعمل في المدينة، في «المطحنة الإنكليزية»؟ حسنا أيها الطائش الصغير، كل هذا لادخار المال وتسديد إيجار هذا البيت الجديد. أبي مُدان على الأقل بإيجار ثمانية أشهر عن البيت الآخر. أنت أصغر من أن تشعر بهذه الأشياء المحزنة. لكن، يتوجب عليّ أنا أيضا الخدمة في القدّاس للمساعدة في مصاريف البيت.

أطبق الصمت لبضع ثوان.

-توتوكا، هل سنحضر الفهدة السوداء والأسدين إلى هنا ؟

-أجل بكل تأكيد. وسنجلب الخادم الذي يتوجب عليه تفكيك قن الدجاج».

نظر إليّ توتوكا نظرة شفقة ممزوجة بالحب.

«أنا من سيفككها ويعيد بناءها هنا».

عندها شعرت بالاطمئنان، ولولاه لتوجّب عليّ ابتكار شيء جديد لألعب مع أخي الأصغر: لويس.

«حسنا، ها قد رأيتَ أنّني صديقك، زيزا. الآن، تستطيع أن

تحكي لي كيف تمكنت من هذا..».

- أقسم لك، توتوكا، بأنني لا أعرف. لا أعرف حقا.

- أنت تكذب، لقد تعلمت من شخص ما.

- لم أتعلم شيئا. لا أحد علمني. ربما الشيطان -جانديرا تقول إنّه عرّابي- هو من علّمني بينما كنت نائما».

بدا توتوكا مرتبكا. حتى أنه وجّه إلى رأسي في البداية نقرات بإصبعه كي أخبره. لكنني لم أجد ما أقول له.

«لا أحد يتعلم هذه الأشياء بمفرده».

لكنّه ظلّ متردّدًا فلا أحدَ رأى فعلاً شخصًا علّمني شيئًا مّا. كان ذلك لغزًا.

أعدتُ التفكير في حادثة وقعت الأسبوع الماضي. حادثة تركت العائلة مصعوقة. كانت البداية حين ذهبتُ للجلوس قرب العم إدموندو، في منزل «ديندينيا». كان يقرأ الجريدة.

-عمّي.

-ماذا هناك، يا صغيري؟

-كيف تعلمتَ القراءة؟

وضع نظاراته على طرف أنفه كما يفعل كل الأشخاص الكبار عندما تتقدّم بهم السن.

-متى تعلمتَ القراءة؟

-عندما كنت في السّادسة أو السّابعة من عمري تقريبًا.

- وفي سن الخامسة، هل نستطيع القراءة؟

- طبعًا نستطيع، لكن لا أحد يفكر في ذلك، فهي سنّ مبكّرة.

- كيف تعلّمتَ القراءة؟

- من خلال التّهجية مثل جميع النّاس، مثلاً بجمع حرفيْ الباء والألف: با.

- أعَلَى الجميع القيام بذلك؟

- حسب علمي نعم.

- لكن هل يتوجّبُ علينا حقًّا القيام بهذا؟

نظر إليّ، نظرةَ مُتواطِئ.

«أصغ إليّ، زيزا، هذا ما يجب على الجميع أن يفعلوه. اتركني الآن أنهي القراءة. واذهب لتتأكّد من وجود جوّافة في الحديقة الخلفيّة».

أعاد نظاراته إلى مكانها وحاول التركيز في قراءته. لكنني لم أتحرك.

«يا له من أمرٍ محزن!».

أطلقتُ هذا التعجب بنبرة مؤثرة كثيرا إلى درجة أنه أعاد إنزال نظاراته.

- هذا غير مهم، عندما تشاء...

- السبب هو أنني جئت من البيت ركضًا كالمجنون كي أحدّثك بخصوص أمرٍ ما.

-حسنًا هيّا احكِ.

- لا. ليس هكذا. يجب أن أعرف أوّلاً متى ستتقاضى راتبك التقاعديّ.

- «بعد غد».

ابتسم لي بحب وهو يراقبني.

- ومتى يكون بعد غد؟

- الجمعة.

- حسنا الجمعة، ألن تريد أن تجلب لي من المدينة «شعاعًا من القمر»؟

- على مهلك زيزا. ما هو هذا الـ «شعاع من القمر؟»

- إنه الحصان الأبيض الصغير الذي رأيته في السينما. يركبه السّيد «فريدْ طومسون». وهو حصانٌ مُدرَّب.

- تريد أن أجلب لك حصانًا صغيرًا بعجلات؟

- أريد واحدًا برأس خشبي ولجام. أمتطيه وأعدو به.. عليّ أن أتدرّب لأنني أريد أن أمثّل مستقبلاً في الأفلام.

واسترسل في الضحك.

-«فهمت». وإذا ما جلبتُه لك فما الذي سأحصل عليه في المقابل؟

- سأفعل شيئًا لأجلك.

- قبلة؟

- لا أحب القبلات كثيرًا.

- معانقة؟

حينئذ نظرت إلى العمّ إدموندو بشفقة لا متناهية. قال لي عصفوري الصغير شيئًا مّا بصوت خفيض. وتذكرت بأنني كثيرا ما سمعت عصفوري يحكي... كان العم إدموندو منفصلا عن زوجته ولديه خمسة أطفال.. كان وحيدًا جدًا ويمشي ببطء، ببطء... ربما كان يمشي بكل هذا البطء لأنه يفتقد أطفاله... فهُمْ لا يزورونه مطلقًا.

درتُ حول الطاولة وضممت عنقه بين ذراعيّ بحرارة شديدة. أحسست بشعره وهو يداعب وجهي بمنتهى اللطف.

-هذا العناق، ليس من أجل الحصان. ما سأقوم به لأجلك، شيء مختلف. سأقرأ.

- زيزا أتعرف القراءة ؟ ما الحكاية؟ من علّمك؟

-لا أحد.

-إنّ ما تقوله لي ترهات.

ابتعدتُ حتّى حافّة الباب، وأضفتُ:

-إن أحضرت لي حصاني الصغير يوم الجمعة، أعدك بأن أقرأ!...

لاحقًا، عندما حلّ الليل وأشعلت «جانديرا» المصباح لأن شركة الكهرباء قطعت عنا التيار لعدم دفعنا الفاتورة، وقفت على أطراف أصابعي كي أرى النجمة. كانت نجمة مرسومة على ورقة وفوقها دعاء لحماية البيت.

«جانديرا»، احمليني بين ذراعيك، أريد قراءة هذا.

- توقف عن الترّهات، زيزا. أنا مشغولة جدًا.

- هيّا، احمليني وسترين ما إذا كنتُ أحسن القراءة.

- حذار، زيزا، الويل لك إن كانت مجرّد مزحة.

أخذتني بين ذراعيها ورفعتني حتّى تجاوزت علوّ الباب.

«هيّا، اقرأ. لأرى هذا».

وقرأتُ. قرأتُ الصلاة التي تطلب من السماوات مباركة البيت وحمايته وطرد الأرواح الشرّيرة.

أنزلتني جانديرا إلى الأرض. كانت فاغرة الفم.

-«زيزا، لقد حفظتَها عن ظهر قلب. أنتَ تسخر مني».

- أبدًا. أقسمُ لكِ، جانديرا. أنا أحسن قراءة أي شيء.

- لا نستطيع القراءة من دون تعلم. هل هو العم إدموندو أم هي «داندينيا»؟

- لا أحد.

تناولتْ ورقة جريدة وقرأتُ. قرأتُ دون خطأ. صرخت جانديرا ونادت غلوريا. تأثرت غلوريا وذهبت لتنادي «ألاييدْ». خلال عشر دقائق توافد كثيرون من الجوار لرؤية إنجازي.

كان هذا ما يريد تُوتُوكا معرفته.

- علّمك ووعدك بالحصان الصغير عندما تحسن القراءة.

- لا، ليس صحيحًا.

- سأسأله بهذا الخصوص.

- اسأله. لا أعرف يا توتوكا كيف حدث هذا. لو كنتُ أعرف لأخبرتُك.

- حسنًا، لنذهب. سنرى حين تحتاج شيئا ما...

أخذ بيدي، ودفع بي مغتاضًا إلى طريق العودة. في تلك اللحظة أضمر شيئا ما لينتقم.

«هذا عمل جيّد! لقد تعلمت في وقت مبكر جدا، أيها الغرّ الصغير. لهذا يتوجّب عليك الآن الدخول إلى المدرسة في فبراير».

كانت تلك فكرة جانديرا. هكذا سينعم البيت بالسلام طيلة الصباح وسأتعلم حسن التصرف.

«لنذهب ونتدرّب على طريق «ريوُ- ساو باولُو». لا تعتقد أنّني سأكون في خدمتك طوال السنة الدراسية، وأقضي كامل وقتي في مساعدتك على عبور الطريق. أنت الذكيّ جدا، ستجيد ذلك أيضًا بسرعة».

«ها هو حصانك الصغير. والآن، أريدك أن تقرأ هذا».

فتح الجريدة وأشار إلى إعلان عن أحد الأدوية.

«يوجد هذا المنتج في جميع الصيدليات وفي الدور ذات الاختصاص».

سارع العم إدموندو ونادى «داندينيا» من الحديقة.

«أمي، حتى كلمة صيدليّة قرأها دون خطأ».

بدؤوا يعرضون عليّ أشياء لقراءتها وقد نجحت في قراءة كل ما

عُرِض عليّ، حتّى أنّ جدّتي تذمّرت قائلة إنّ العالم قد جُنّ.

ها قد حصلتُ أخيرا على حصاني الصغير فارتميت مجدّدًا لأطوّق عنق العم إدموندو. لكنه أمسك بذقني وقال لي بصوت مشحون:

«ستمضي بعيدًا، أيها الصعلوك. لم يكن من باب الصدفة أن يكون اسمك خوسيه[1]، ستشرق الشمس من حولك وتسطعُ النجوم».

نظرتُ إليه باستغراب قائلا في نفسي إنه لمجنون حقًا.

«إنها حكاية يوسف في مصر. لن تستطيع استيعابها.. عندما تكبر، سوف أرويها لك».

كنتُ مهووسًا بالحكايات. وكلّما كانت الحكايات أكثر تعقيدًا أحببتها أكثر.

داعبت حصاني الصغير لبرهة طويلة ثم رفعت رأسي نحو العم ادموندو وسألته:

«هل تعتقد أنني سأكبر بحلول الأسبوع القادم ؟».

---

(1) اسم خوسيه José بالإسبانية والبرتغالية، اختصار لاسم Joseph يوسف. إشارة إلى قصّة يوسف وحلمه.

2

الجذع الطريّ لشجرة برتقال حلو

في البيت، يتوجب على كل واحد من الإخوة الكبار الاهتمام بواحد من إخوته الصغار. اهتمت جانديرا بغلوريا وبأخت أخرى أعطيت إلى أشخاص في الشمال. وكان أنطونيو طفلها المُدلّل. بعد ذلك اهتمت «لالا» بي حتّى الفترة الأخيرة بل بدت وكأنّها تحبّني حقًّا، لكنها ملّتني لاحقًا ربّما لأنها اهتمت كثيرا بحبيبها الحسن المظهر مثلما تقول الأغنية: ببنطلونه الطويل وسترته القصيرة. الأحد، عندما كنا نذهب لممارسة رياضة الـ footing (هكذا كان يقول حبيبها) بجوار المحطّة، كان يشتري لي حلوى أحبها كثيرًا. كان يفعل هذا كي لا أقول شيئًا عند عودتي إلى البيت. بل لم يكن باستطاعتي أن أسأل العم إدموندو حتّى وإلا فسيكتشفون كل شيء...

مات أخواي الصغيران الآخران حين كانا رضيعين، لم أعرفهما بل سمعت عنهما فحسب. كانوا يقولون إنّهما هنديان «بيناجيه»[1] صغيران. بُنيّا البشرة تماما وبشعر أسود أملس. ولهذا السبب سمّوا البنت «أراسي» والولد «جُورندجير».

(1) بيناجيه: اسم عائلة-قبيلة من الهنود الأصليين.

وفي المرتبة الأخيرة يأتي أخي الصغير لويس. كانت جلوريا على الأخص من تهتم به ثم لاحقًا أنا. في الحقيقة لا أحد كان يحتاج إلى الاهتمام به لأنه كان الولد الأكثر جمالاً، الأكثر طيبةً والأكثر طاعةً كما لم يُشاهَد قط من قبل.

لذلك حين يوجّه إليّ الكلام بصوته النّاعم الذي ينطق كلّ شيء من دون خطأ، كنت، وأنا أستعدّ للالتحاق بعالم الشارع، أغيّر رأيي.

«زيزا، هل تريد أن تصطحبني إلى حديقة الحيوانات؟ ليس من المتوقع أن تمطر اليوم أليس كذلك؟».

كم كان ظريفًا. يقول كل شيء من دون أن يخطئ. هذا الصغير سيصبح شخصًا مُهِمًّا سيذهب بعيدًا.

كنت أمتّعُ نظري باليوم الجميل، لا شيء سوى الزرقة في السماء. لم أمتلك الشجاعة لأكذب. لأنني أحيانًا وعندما لا تكون لديّ رغبة في الخروج معه، كنتُ أقول:

«أنت مجنون، لويس. ألا ترى قدوم العاصفة!...».

هذه المرّة، أخذت يده الصغيرة وها نحن ننطلق لنبدأ مغامراتنا في الحديقة.

قُسمت الحديقة إلى ثلاثة نطاقات. حديقة الحيوانات، وأوروبا التي توجد قرب سياج منزل السنيور جُولينيُو المُكوّن من شجيرات والمُعتنى به جيّدًا. لماذا أوروبا؟ حتى عصفوري الصغير لم يكن يعلم ذلك. وأخيرًا المكان حيث كنّا نمارس لعبة تلفريك جبل «خبز

السكر»[1]. كنت ألتقط علبة الأزرار وأضعها فوق سلسلة. ثم نربط طرفًا بالسياج ويمسك لويس بالطرف الآخر. نضع في الأعلى كل الأزرار ونتركها تنزلق ببطء واحدًا واحدًا. كانت كلّ سيارة تصل ممتلئة بأشخاص معروفين. كان هناك زر أسود بأكمله، هو عربة قطار الزنجي «بيريغينيُو». ومن وقت إلى آخر، كنا نسمع صوتا في الحديقة المُجاورة.

- إيّاك أن تتلف سياجي، زيزا؟

- لا دُونا «ديميرندا» تستطيعين التأكّد من ذلك.

- هكذا أحبك، وأنت تلعب بلطف مع أخيك الصغير. أليس هكذا أفضل؟.

ربما كان أفضل لكن حين يستولي عليّ عرّابي، الشيطان، لا يوجد شيء أكثر روعة من القيام بحماقات...

- ستعطينني رزنامة في عيد الميلاد، مثل السنة الماضية؟

- ماذا فعلت بالرزنامة التي أعطيتك إيّاها؟

- تستطعين أن تدخلي وتلقي نظرة، دُونا «ديميرندا». إنها أعلى كيس الخبز».

ضحكت ووعدتني. كان زوجها يعمل في محل «شيكو فرانكو».

كنا نمارس لعبة أخرى. إنه «لوسيانو». في البداية، كان لويس يخاف منه خوفا شديدا ويسحبني من سروالي مطالبا إياي بالعودة.

(1) التلفريك هو وسيلة مواصلات بين الجبال، وخبز السكر، جبل شهير في البرازيل Pain de Sucre ومعلم سياحي يصعد الزوار في التلفريك لمشاهدته عن قرب.

لكن لوسيانو كان صديقًا. عندما يراني، يُطلق صرخات حادّة. جلوريا أيضًا لم تكن تحب هذا، كانت تقول إن الخفافيش تمتص دم الأطفال.

-هذا ليس صحيحًا، جلوريا. لوسيانو ليس مصاص دماء، إنه صديقي، وهو يعرفني.

- أنتَ، وحيواناتك وعادتك السخيفة في التحدث مع الأشياء....

صعُب عليّ إقناعها بأن لوسيانو ليس حيوانا. لوسيانو كان طائرة تطير في «كامبُو دوس أفونسوس»[1].

«انظر جيّدًا، لويس».

حوّم لوسيانو فوقنا سعيدًا وكأنه فهم ما كنّا نقوله. وكان حقا يفهم.

«إنه طائرة. إنه يقوم بـ...».

بقيتُ صامتًا. يجب أن أطلب من العم إدموندو أن يكرّر لي هذه الكلمة. لم أعد أعرف إن كانت بلهوانيات، أو بهلوانيات، أو بولهنيات. كانت واحدة من هذه الكلمات الثلاث. لا ينبغي لي أن أعلّم أخي الصغير كلمات بالمقلوب.

لكنه الآن يريد الذهاب إلى حديقة الحيوانات. اقتربنا من الخُمِّ القديم. في الداخل، كانت الدجاجتان الصغيرتان البيضاوان تنبشان الأرض بينما كانت الدجاجة السوداء العجوز مسالمة حتّى ليمكن

(1) قاعدة القوات الجوية البرازيلية.

للإنسان أن يربّت على رأسها بلطف.

-لنذهب أوّلاً لشراء التذاكر. أعطني يدك، فقد تضيع وسط هذا الحشد. هل ترى كم يوجد من الناس يوم الأحد؟»

أمعن لويس النظر وبدأ في تمييز الناس من كل الجهات وهو يضغط على يدي بقوة أكبر.

عند شباك التذاكر، دفعت بصدري إلى الأمام وسعلتُ، كي أمنح نفسي أهمية. وضعت يدي في جيبي وطلبتُ من العاملة:

- انطلاقا من أي عمر يدفع الأطفال؟

- انطلاقا من خمس سنوات.

- إذن، تذكرة دخول، من فضلك.

أخذت ورقتيْ شجرة برتقال على شكل تذاكر ودخلنا.

في البداية، صغيري، سترى العصافير، إنها أعجوبة. انظر إلى هذه الببغاوات الصغيرة وببغاوات الآراس من كل الألوان. هذه، المُغطّاة بريش مُتعدد الألوان تسمّى «آراس قوس قزح».

فتح عينيه على وسعهما، بافتتان.

مشينا ببطء ونحن نتأمّل كلّ شيء. أمعنتُ النظر جيّدًا حتى أنني رأيتُ غير بعيد، جلوريا ولالا جالستين على مقعدين من دون ظهر، تقشران برتقالا. كانت عينا لالا تنظران إليّ بطريقة... هل اكتشفتا الأمر؟ لو حدث ذلك، فستنتهي زيارة حديقة الحيوانات هذه بضرباتٍ كبيرةٍ من الخف على مؤخرة أحدهم. وهذا الأحدُ لا يمكن أن يكون سوايَ.

«والآن، زيزا، ماذا سنزور؟».

سعال جديد ووقت للتوقف.

«سننتقل إلى أقفاص القردة التي يصرّ العم إدموندو على تسميتها برباعيّة الأيدي».

بعد شراء الموز، ألقينا منه للحيوانات. كنا نعلم أنّ هذا ممنوع، لكن كان يوجد الكثير من الناس حتى ليتعذّر على الحراس الانتباه لذلك.

«لا تقترب كثيرًا، سيلقون بقشور الموز عليك، أيها الصغير».

- أريد رؤية الأسُود على وجه الخصوص.

- سنتحوّل إلى هناك.

ألقيت نظرة على قردتين كانتا تمتصّان البرتقال. من قفص الأسود كان بالإمكان سماع ما يجري من حديث بين جلوريا ولالا.

«ها قد وصلنا».

أريتُه الأسدين الأصفرين، وأسُودًا حقيقية من إفريقيا. وعندما أراد أن يداعب رأس الفهدة السوداء...

«يا لهذه الفكرة، أيها الصغير. هذه الفهدة هي رعب الحديقة. وهي موجودة هنا لأنها اقتلعت أذرع ثمانية عشر مُروِّضًا والتهمتها».

كشّر لويس تكشيرة رعب وسحب ذراعه بسرعة.

- هل جاءت من سيرك؟

- نعم.

-من أي سيرك زيزا؟ لم تحدثني عن هذا أبدًا في السّابق.

فكرتُ وفكرتُ. أَتراني أعرف من يحمل اسم سيرك؟

«آه! إنها من سيرك «روزمبيرك»».

-لكن هذا اسم المخبزة ؟

أصبح من الصعب جعله يصدق الأشياء، بدأ يتحوّل إلى شخص ماكر حقًّا.

«هذا واحد آخر. علينا أن نجلس هنيهة كي نتناول وجبتنا الخفيفة. لقد مشينا كثيرا».

جلسنا وتظاهرنا بالأكل. لكن أذنيّ كانتا منتبهتين واستمعتُ إلى حديثهما.

«يجب أن نتخذه مثالاً يُحتذى به «لالا». انظري كم هو صبور مع أخيه الصغير.

- أجل، لكن هذا لا يمنع من كونه لا يطاق.

- بكل تأكيد إنّه شديد الهيجان، لكنه مع ذلك لطيف المعشر. لا أحد في الحي يحقد عليه، مهما ابتكر من أكاذيب...

- لن يمرّ من هنا من دون تلقي ضربة من الخف. سيفهم ذات يوم».

أرسلتُ نظرة متوسلة إلى جلوريا. كانت دائما تنقذني ودائما كنت أعدها بأن لا أعيد فعلتي...

«في ما بعد. ليس الآن. إنهما يلعبان بوداعة كبيرة...».

إذن كانت تعرف كل شيء. كانت تعلم بأنني نزلت عبر الجدول ودخلت إلى الجهة الخلفية من حديقة الدُونا سيلينا. كنتُ مفتونًا

بحبل الغسيل الذي تأرجحت منه مجموعة من الأذرع والسيقان بفعل الرّيح. عندما همس لي الشيطان بأنني أستطيع أن أوقع بضربة واحدة كل هاته الأذرع والسيقان. فاعترفت معه بأن هذا سيكون ممتعًا جدًّا. بحثت في الجدول عن قطعة زجاج حادّة. تسلقت إلى داخل أغصان شجرة البرتقال وقطعتُ الحبل.

كدتُ أقع في اللحظة التي تهاوى فيها كل شيء. صرخة واندفع الجميع.

«تعالوا ساعدوني، أنتم هناك، لقد انقصف الحبل».

لكن صوتًا في الأعلى صرخ، لا أعرف من أين:

«إنه هذا الطفل الطاعون ابن السنيُور باولو. رأيته يصعد داخل شجرة البرتقال بقطعة من الزجاج».

- زيزا؟

- ماذا، لويس؟

- أخبرني كيف تعرف كل هذه الأشياء حول حديقة الحيوانات؟

- لقد زرت الكثير منها خلال حياتي.

كنتُ أكذب وكل ما كنتُ أعرفه، رواه لي العم إدموندو، حتى إنه وعدني بأن يأخذني ذات يوم إلى حديقة الحيوانات. لكنه كان يمشي ببطء وكان الوقت سيمضي قبل وصولنا إلى الحديقة. أمّا توتوكا فقد زار الحديقة مرّة رفقة والدي.

«إن حديقتي المفضلة، هي حديقة البارون «دروموند» في «فيلا إيزابيل». هل تعلم من كان البارون «دروموند؟» كلاّ، بالتأكيد،

لا تعلم. أنت صغير جدًّا لتعرف هذا. يجب أن يكون هذا البارون صديقًا جدًّا لله. لأنه كان هو من ساعده الله كي يبتكر لعبة «جوغو دي بيشُو»، لعبة يانصيب الحيوانات وحديقة الحيوانات. عندما تصبح أكبر...».

كانتا لا تزالان هناك، الاثنتان.

-عندما أصبح أكبر سنّا، ماذا؟

-آه! يا لهذا الطفل الملحاح. عندما تُصبح أكبر، سأعلّمك أسماء الحيوانات وأرقامها. سأعلّمك حتى رقم عشرين. أعرف بأنه يوجد من رقم عشرين حتى رقم خمسة وعشرين: البقرة، الثور، الدب، الأيل والنمر. لا أحفظهم بالترتيب، لكنني سأتعلّمهم كي لا أقول لك حماقات».

كانت هذه اللعبة تُتعبه.

-زيزا، غنِّ لي «الكابانون»

-هنا في حديقة الحيوانات؟ يوجد الكثير من الناس.

-لا. إنهم يغادرون.

-الكلمات طويلة. سأغني فقط المقطع الذي تحبه.

كنت أعرف المقطع الذي يتحدث عن الزيزان.

بدأتُ أنشدُ:

تريدُ أن تعلم من أين أنا قادم
من السقيفة، ثروتي
في الجوار تنمو شجرة تفاح

إنه كوخ بسيط

في أعلى التل

والبحر يلتمع عند قدميه ...

تجاوزت بضعة أبيات.

بين أشجار النخيل الجذّابة

تغنّي الزيزان كلّها

عندما تغرب الشمس

نرى الأفق قرمزيا

في الحديقة نبعٌ يغني

وفوق النبع بلبل...

توقفتُ. استمرتا في انتظاري بكل حزم. خطرت لي فكرة. سأستمرّ في الغناء حتى حلول الليل. سينتهي بهما الأمر بصرف النظر عن الموضوع.

لكن من دون جدوى. غنيتُ «*الكابانون*» كاملة، وأعدتها وغنيت «*لأجل حبّك العابر*» بل غنيتُ أيضا «*رامونا*». غنيت النسختين المختلفتين اللتين أعرفهما من *رامونا*.... ولم يحدث شيء. فسيطر عليّ يأس رهيب. من الأفضل الانتهاء من المسألة. اتجهت نحوهما.

«هأنذا، «لالا». تستطيعين ضربي».

استدرت وعرضت عليها مؤخرتي. شددتُ على أسناني لأن «لالا» تضرب بالشبشب[1] بقوة جميع الشياطين.

(1) فضلنا استعمال الشبشب على كلمة خف أو قبقاب رغم أن المقصود هنا هو الأقرب الى القبقاب في شكله القديم.

كانت أمي من خطرت لها الفكرة.

«اليوم، سنذهب كلنا لرؤية المنزل».

أخذني توتوكا على حدة وحذّرني هامسًا: «إذا أخبرتهم بأنك تعرف المنزل مُسبقًا، سأخنقك».

ليتني لم أفكّر فيه أصلاً.

سارت القافلة كلها على امتداد الطريق. أعطتني جلوريا يدها، كان لديها أمر بأن لا تتركني ولو لثانية. وكنت، بدوري أمسك بيد لويس.

«متى يتوجب علينا الانتقال، يا أمي؟».

أجابت أمي جلوريا بشيءٍ من الحزن:

- بعد يومين من عيد الميلاد، سيتوجب علينا البدء بجمع أسمالنا.

كانت تتكلم بصوت منخفض لكن منهك. شعرت بالشفقة عليها. أمّي تعمل منذ ولادتها. منذ أن كان عمرها ستّ سنوات على إثر إنشاء المصنع الذي شغّلوها فيه. كانوا يجلسون أمي على طاولة وكان يتوجب عليها تنظيف الأدوات وتجفيفها. كانت صغيرة جدًّا إلى درجة أنها كانت تتبوّل على الطاولة لأنها لا تستطيع النزول بمفردها. لأجل هذا لم تذهب أمي يوما إلى المدرسة ولم تتعلم القراءة. عندما سمعت هذه القصة تُروى، حزنت كثيرًا فوعدت أمي بأنني حين أصبح شاعرا وعالما سأقرأ لها قصائدي...

أعلن عيد الميلاد عن حضوره من خلال المحلاّت والواجهات.

كنا قد رسمنا مجموعة من رجال «البابا نويل» على كل المرايا. كان بعض الناس يشترون البطاقات باكرًا كي لا يتزاحم الجميع دفعةً واحدةً في المحلات في آخر لحظة. أنا، كان لدي أمل سريّ؛ هذه المرة سيُولد المسيح الصغير، سيولد حقًّا لأجلي. عندما أبلغ سن الوعي، سوف أتحسن قليلاً ربّما، في نهاية الأمر.

«ها هنا».

كان الجميع مسرورين. البيت كان أصغر قليلاً. بمساعدة توتوكا، فكّت أمي سلكًا كهربائيًا كان يُثبّت البوابة الصغيرة وحصل اندفاع. تركت جلوريا يدي ونسيت تقريبًا بأنها شابة. بدأت في الركض واحتضنت شجرة المانغو.

«شجرة المانغو لي. كنت أوّل من لمسها».

وقام أنطونيو بنفس الشيء مع شجرة التمر الهندي.

لم يتبق شيء لأجلي. نظرتُ إلى جلوريا وأنا أكاد أبكي.

-وأنا، جودويا[1]؟

-اركض هناك في الخلف. لا شك أنّ هناك أشجارًا أخرى، أيها السخيف.

ركضتُ لكنني لم أجد سوى أعشاب عالية وأجمة من أشجار البرتقال الهرمة، المليئة بالأشواك. وعلى حافة الجدول، كان يوجد جذع طريّ لشجرة برتقال حلو.

---

(1) تدليل لاسم جلوريا.

شعرتُ بخيبة أمل. كان الآخرون مشغولين بزيارة الغرف وبتقرير لمن ستكون.

جذبتُ تنورة جلوريا.

-لم يبق شيء.

-أنت لا تجيدُ البحث كما يجب. انتظر، سأعثر لك على شجرة.

وأتت معي مباشرة. فحصت أشجار البرتقال.

-ألا تحب هذه؟ انظر يا لها من شجرة برتقال رائعة.

لكن لم تعجبني ولا شجرة واحدة من تلك الأشجار. لا هذه ولا تلك ولا أيُّ واحدة. إنّها مليئة بالأشواك.

-بدلاً من هذه الفظائع، أفضّلُ جذع البرتقالة الحلوة.

-أين؟

أريتُها إيّاها.

-أوه! جذع البرتقالة الحلوة الجميل! انظر، ليس فيه ولا شوكة واحدة ولديه من الشخصيّة حتى أننا نخمن من بعيد بأنه «الجذع»[1]. لو كانت لي قامتك، فلن أريد شيئًا آخر.

- لكنني أردتُ شجرة أكبر.

- فكر، زيزا. هذه الشجرة مازالت يافعةً جدًّا. ستصبح شجرة برتقال راشدة. ستكبران في نفس الوقت وستفهمان بعضكما كما لو أنكما شقيقان. هل رأيت هذا الغصن؟ صحيح أنه

(1) تعمدت الأخت جعل الكلمة معرّفة للتشديد على أهمية الجذع.

الغصن الوحيد الذي يملكه جذع شجرة البرتقال، إلاّ أنه يبدو وكأنه حصان صغير نما خصيصًا كي تركب عليه».

شعرت بأنني أكبر محروم في العالم.

تذكرت قارورة الشراب المرسوم عليها ملائكة إسكتلنديون. كانت «لالا» قد قالت: «هذا هو أنا». أشارت جلوريا إلى ملاك آخر. واستأثر توتوكا بملاك آخر لنفسه. وأنا؟ لم يتبق لي إلا تلك الرأس في الخلف، من دون أجنحة تقريبًا. الملاك الرابع الإسكتلندي الذي لم يكن حتى ملاكًا كاملاً...كنتُ دائماً الأخير. عندما أصبحُ كبيرًا، سوف يرون. سوف أشتري غابة من الأمازون وسوف تكون لي كل الأشجار التي تلامس السماء. سوف أشتري محل قوارير مع مجموعة من الملائكة ولن يحصل أيّ كان ولو على طرف جناح.

استأتُ. جلستُ على الأرض متكئًا على جذع شجرة البرتقالات الحلوة دون أن يفارقني مزاجي السيء. ابتعدت جلوريا مبتسمة.

«لن يستمر هذا المزاج السيِّئ، زيزا. سينتهي بك الأمر إلى اكتشاف أنني كنت على صواب».

كشطتُ الأرض بقطعة خشب وبدأت أتوقف عن البكاء. سمعتُ صوتا يصلني من حيث لا أدري، على عكس ما كنت أتمنّى.

-أرى بأن أختك على صواب.

-الجميع دائما على صواب. إلاّ أنا.

- هذا غير صحيح. إذا ما نظرتَ إليّ جيّدًا، سينتهي بك الأمر إلى اكتشاف هذا.

رفعتُ عينيّ ونظرت إلى الشُجيْرة مُرتعبًا. كان الأمر غريبًا لأنني كنت أتكلم دائماً مع أي شيء، ولكنني كنت أفكر في أن العصفور الموجود بداخلي كان المتكفّل بالإجابات.

-لكن هل تتكلم حقيقة؟

-ألا تسمعني؟

وشرع يضحك بصوت منخفض. كدت أهرب صارخاً في الحديقة. لكن الفضول شدني هناك.

-من أين تتكلم؟

-الأشجار تتكلم من كل الجهات في نفس الوقت. من الأوراق، من الأغصان، من الجذور. هل تريد أن ترى؟ ألصق أذنك فوق جذعي واسمع قلبي ينبض.

لم أعزم على ذلك حقًّا، لكن بمشاهدة علوّه تبدّد خوفي. ألصقتُ أذني. كان هناك شيء في الداخل، شيء يصوّت: تيك..تيك...

-أرأيت؟

- قل لي شيئًا. هل يعلم الجميع بأنك تتكلم؟

- كلاّ. أنتَ فقط.

- هل هذا صحيح؟

- أستطيع أن أقسم على هذا. أخبرتني جنيّة[1] بأنه حين يُصبح ولد صغير مثلك صديقي سأنطلق في الكلام وسأكون سعيدًا

(1) المقصود هنا بالجنية الطيبة التي يؤمن الصغار في طفولتهم بقدراتها السحرية.

جدًّا.

- وستنتظر؟

- أنتظر ماذا؟

- أن أنتقل إلى مسكننا الجديد. سيكون ذلك في غضون أسبوع أو أكثر. فلا تنسَ بأن نتحدث خلال هذه الفترة؟

- أكثر من أي وقت مضى . بمعنى أنا أتحدث فقط إليك أنت. هل تريد أن ترى كم أنا ليّن؟

-كم أنت ماذا؟...

- اصعد فوق غصني.

أطعتُ.

«الآن، تأرجح وأغلق عينيك».

نفّذت ما طلبه منّي.

«هل الأمور جيّدة؟ هل حصلت في حياتك من قبل على حصان بهذه الجودة؟»

«أبدًا. إنه متعة. سيكون بإمكاني منح حصاني «شعاع القمر» لأخي الصغير لويس. ستحبه كثيرًا لو تعلم».

نزلتُ، كنت مشغوفا بجذع شجرة البرتقالات الحلوة.

«أصغ إليّ، سأقوم بشيء. قبل أن ننتقل، سآتي للثرثرة معك، في كل مرّة أتمكن فيها من القدوم... الآن، يتوجب عليّ الذهاب، إنهم يغادرون.

- لكننا لا نغادر صديقا هكذا.

- صه! ها هي ذي».

وصلت جلوريا في اللحظة عينها التي كنت فيها أضم الجذع بين ذراعيّ.

-وداعا، صديقي. أنت أجمل شيء في العالم!

-ألم أقل لك هذا؟

-أجل، هذا صحيح. الآن، إذا ما أعطيتموني شجرة المانغو أو شجرة التمر الهندي مقابل هذه الشجرة، فلن أقبل ذلك.

مرّرت أصابعها بحنان في شعري.

«آه، ياللك من طائش.. ياللك من طائش...».

انطلقنا، اليد في اليد.

«جُودويا، ألا تجدين بأن شجرة المانغو، الخاصّة بك غبيّة قليلاً؟

-لا أستطيع أن أعرف هذا الآن، لكنها تبدو كذلك إلى حدّ ما.

- وشجرة التمر الهندي الخاصة بتوتوكا؟

- إنها ثقيلة قليلاً، لماذا؟

- لا أعلم إن كنت أستطيع إخبارك. لكنني ذات يوم، سوف أحكي لك عن معجزة، جُودويا».

3

أصابع البؤس النحيلة

عندما عرضتُ المشكلة على العم إدموندو، فكّر في الموضوع بجديّة.

-إذن، هذا ما يشغل بالك؟

-أجل، سيدي. أخشى بألاّ يأتي لوسيانو معنا إذا ما انتقلنا إلى المنزل الجديد.

- هل تعتقد أنّ هذا الخفّاش يحبك كثيرًا؟

- أجل إنه يحبني!...

- من صميم قلبه؟

- هذا أكيد.

- إذن تأكّد من أنّه سيتبعك. من المُحتمل أنه سيتأخر في الظهور، لكنه سيجدك ذات يوم.

- أخبرته مُسبقًا عن الشارع ورقم البيت أين سنسكن.

- حسنا، إذن، الأمر بسيط. إذا لم يستطع الذهاب إلى هناك بسبب انشغاله بالتزامات أخرى، فسيرسل إليك أخا أو ابن عم أو واحدًا من عائلته ومن دون أن تنتبه إلى ذلك أصلًا.

ومع ذلك، كنتُ لا أزال مشغول البال. ما فائدة أن أحدد للوسيانو الرقم واسم الشارع بما أنه لا يعرف القراءة؟ ربما يستطيع أن يسأل الطيور، أو أن يسأل الدعاسيق أو الفراشات.

-لا تقلق، زيزا، الخفافيش لها القدرة على تحديد طريقها.

-ماذا تقصد، يا عمي؟

شرح لي معنى القدرة على تحديد الاتجاه فانبهرتُ، مرة أخرى، بعلمه.

اندفعت وقد حُلّت مشكلتي، إلى الشارع كي أخبر كل الناس بما نحن قادمون عليه: الانتقال إلى المنزل الجديد. كان معظم الأشخاص الراشدين يقولون لي بلهجة مرحة:

«يا له من أمر جيّد! يا للروعة!... يا للحظ!...».

الوحيد الذي بالكاد اندهش كان «بيريكينيُو»:

-حظ آخر أن يكون البيت الجديد في ذلك الشارع. إنه قريب. وماذا عن القصة التي حدثتك عنها؟

- متى سيكون هذا؟

-غدًا، في الثامنة، عند باب كازينو «بانغو». قالوا إنّ صاحب المصنع أمر بشاحنة من الألعاب. ستأتي؟

-أجل. وسأصطحب معي لويس؟ هل تظن بأنني سأحصل على شيء؟

- بكل تأكيد. غِرٌّ مثلك. أم تظن نفسك قد صرتَ رجلاً؟

اقترب مني وأدركتُ بأنني مازلتُ صغيرا. أصغر مما كنت أعتقدُ.

«حسنًا، إذا ما كان لديّ شيء... لكن حاليًا لديّ ما أفعله. غدا، نلتقي هناك».

عدتُ إلى البيت وبدأت باللفّ حول جلوريا.

-ماذا هناك، أيها الصغير؟

-تستطيعين أنتِ اصطحابنا. هناك شاحنة ستأتي من المدينة، مكتظّة بالألعاب حتى حافتها.

-أصغ إليّ زيزا، لديّ أشغال كثيرة لإنجازها. عليّ القيام بالكي ومساعدة جانديرا في التحضير للانتقال. وعليّ مراقبة الطعام فوق النار...

-سيأتي الكثير من طلاب المدرسة العسكرية في «رِينيلغُو».

بالإضافة إلى شغفها برودولف فالنتينو[1] التي تسميه «رُودي» والتي تجمع صوره في كراسة، كانت جلوريا مهووسة بالطلاب العسكريين.

-هل سبق لك أن رأيت طلابا عسكريين عند الثامنة صباحًا؟ هل تستغباني أيها الصبيّ. اذهب للعب، زيزا.

لكنني لبثت مكاني.

«هل تعلمين، جودويا. هذا ليس لأجلي، لكنني وعدتُ لويس باصطحابه. إنه صغير جدا، في سنّه لا يفكر الأطفال إلا في عيد الميلاد».

-زيزا، سبق وأن قلتُ لك إنّني لن أذهب. كلّ هذا مجرّد

(1) ممثل ايطالي- أمريكي وسيم اشتهر بأدواره الرومانسية.

حكايات: أنت من يريد الذهاب. لديك ما يكفي من الوقت في حياتك لتتلقّى هدايا أعياد الميلاد...

- وإذا متُّ؟ هذا العام سأموت من دون هديّة عيد الميلاد.

- لن تموت بهذه السرعة، يا عجوزي، ستعيش أكثر من العم إدموندو مرتيْن أو أكثر من السنيور «بينيديتُو». يكفي الآن واذهب للعب».

لكنني لم أذهب. تصرفت بطريقة تجعلها ترتطم بي في كل لحظة. ذهبتْ لجلب الماء من المغسل، فجلست على عتبة الباب أنظر إليها...

في النهاية، لم تقدر على تمالك نفسها:

«يكفي، زيزا. سبق أن قلت لك لا ولا. حبا بالله، لا تجعل صبري ينفد. اذهب للعب».

لكنني لم أذهب. يعني أنني ظننتُ أنني لن أذهب. لأنها قبضت علي، وحملتني إلى الجهة الأخرى من الباب ووضعتني في الحديقة. ثم عادت إلى المنزل وأغلقت باب المطبخ وباب الغرفة. لم أستسلم. جلست بالتعاقب قريبا من كل النوافذ التي يتوجب عليها المرور أمامها. لأنها كانت قد بدأت في تنظيف المنزل وفي ترتيب الأسرّة. وجدتني في مكاني فأغلقت النافذة. وانتهى بها الأمر إلى أن أغلقت البيت كله كي لا تراني.

«شيطانة شريرة! صهباء بشعة! لن تتزوجي أبدًا طالبًا عسكريًّا، هذا جيّد! ستتزوجين من جنديّ معدم لا يجد ما يُلمّع به جَزمته. هذا ما تستحقّينه».

عندما تبيّن لي بأنني كنت حقًّا أضيّع وقتي، ذهبتُ، ووجدت نفسي مرة أخرى في الشارع.

في الشارع، وجدتُ «ناردينيُو» الذي كان يلعبُ بشيء ما. كان مقرفصًا ينظرُ، وهو مستغرق تمامًا. اقتربت منه. كان قد صنع سيارةً صغيرةً جدًّا بعلبة أعواد ثقاب وربط إليها جعلا، لم أرَ واحدا من قبل بمثل هذا الحجم الكبير.

-حسنا!...

-إنه كبير، أليس كذلك.

-هل تبادلُه؟

-مقابل ماذا؟

-صُور، إذا أردت...

-كم؟

-اثنتان.

-لديك نُكت جيّدة. صورتان مقابل مثل هذا الجعل!...

- مثل هذه الجعلان، يوجد الكثير منها خلف منزل العم إدموندو.

- أبادلك إياها مقابل ثلاث صور.

- سأعطيك ثلاثا، شرط ألاّ تختار.

-إذن، لا. أختار على الأقل اثنتين.

-اتفقنا.

أعطيته صورة للورالا بلانتا إذ لدي منها نسختان واختار صورة أخرى لهُوت جيبسون وأخرى لباستي روث ميلير. أخذت الجعل، وتركته ينزلق في جيبي وذهبت.

«بسرعة لويس. ذهبت جلوريا لشراء الخبز وجانديرا مستغرقة في القراءة وهي على الكرسيّ الهزّاز».

خرجنا عبر الممر منكمشيْن على نفسيْنا وكنت سأساعده على قضاء حاجته.

«اقض حاجتك جيّدا، خلال النهار لا يحق لنا التبوّل في الشارع».

ثم غسلت له وجهه بسرعة. وقمت بالمثل ثم عدنا إلى الغرفة.

ألبستُه ثيابه في صمت. ألبسته حذاءه الصغير. يا لقذارة هذه الحكاية، حكاية الجوارب، لا تنفع إلا في تعقيد الأمور. زرّرتُ بدلته الزرقاء الصغيرة وبحثت عن المشط. لكن شعره ظلّ أشعث. كان يتوجب القيام بشيء. لم يكن يوجد شيء في أي مكان؛ لا زيت، لا ملمّع شعر. ذهبتُ إلى المطبخ وعدت بقليل من دهن الخنزير، على أطراف أصابعي. فركت دهن الخنزير في راحة يدي وشممتُ.

«رائحته ليست سيّئة».

ضمخت شعر لويس بالدهن وصفّفته. هذه المرّة، كان مُصفَّفًا جيّدًا بحق، فبدا لويس بجدائله الصغيرة شبيها بالقديس يوحنا الذي يحمل حَمَلا على كتفيه.

«الآن لا تتحرك مطلقًا. سأرتدي ملابسي».

بينما كنتُ أرتدي بنطالي وقميصي الأبيض، نظرت إلى أخي.

كم هو جميل! لا يوجد أيّ إنسان أجمل منه في بانغو. انتعلتُ صندل التنس الخاص بي والذي يجب أن يظلّ في حالة جيّدة حتى ذهابي إلى المدرسة، السنة المقبلة. واصلتُ النظر إلى لويس.

ولفرط وسامته وزينته، يمكن اعتباره المسيح الصغير، وقد كبر قليلا. سيحصل على الكثير من الألعاب، بكل تأكيد. عندما يرونَه..

جفلتُ. كانت جلوريا قد عادت للتوّ، وضعت الخبز على الطاولة. كان الورق يصدر ذلك الصوت الرائع للأيّام التي يكون فيها الخبز موجودا. خرجنا ممسكين بيديْ بعضنا وتسمّرنا أمامها.

«إنه وسيم؟ أليس كذلك، جودويا؟ أنا من ألبسته».

وبدل أن تغضب، استندت إلى الباب ونظرت في الهواء. وعندما أطرقت، كانت عيناها مغرورقتين بالدموع.

«أنت أيضا وسيم. أوه! زيزا!».

ركعت وضمت رأسي إلى صدرها.

«يا إلهي! لماذا يجب أن تكون الحياة قاسية بالنسبة إلى البعض؟...».

تماسكت ثم رتبتنا قليلاً.

«لقد قلتُ إنّني لا أستطيع اصطحابكما. أنا لا أستطيع فعلًا، زيزا. لديّ الكثير من الأمور لا بدّ من القيام بها. سنتناول القهوة بداية وخلال هذا الوقت سأفكر. حتى لو أردت اصطحابكما لن يكون لديّ الوقت الكافي لتجهيز نفسي...».

ملأت أكوابنا بالقهوة وقطّعت الخبز. وواصلت النظر إلينا بحزن.

«كلّ هذا الجهد من أجل لعب رديئة متروكة. وبطبيعة الحال، هذا دون أن ننسى أنهم أيضا لا يستطيعون منح أشياء رائعة لكل الفقراء الموجودين».

صمتت بضع لحظات ثم واصلت:

-ربّما هذه هي الفرصة الوحيدة. لا أستطيع منعكما من الذهاب...لكن، ربّاه، أنتما صغيران جدا...

- سأنتبه له، جيّدًا. سأعطيه يدي طوال الوقت، جُودويا. وسنتجنّبُ عبور طريق «ريُو-ساو باولو».

- بالرغم من كل شيء، ذهابكما بمفردكما محفوف بالمخاطر.

- لا، أؤكّد لك. بالإضافة إلى أنني أمتلك الإحساس بالاتجاهات».

ضحكت رغم حزنها.

-من علّمك هذا أيضًا؟

-العم إدموندو. يقول إنّ لوسيانو يمتلكه، وإذا كان لوسيانو الأصغر مني يمتلكه فأنا أمتلكه أيضًا...

- سأتحدث مع جانديرا عن هذا الأمر.

- هذا وقت ضائع. ستسمح بهذا. جانديرا تقضي وقتها في قراءة الروايات وفي التفكير في عشاقها. الأمر سيّان بالنسبة إليها.

- سنقوم بهذا الأمر: سننهي قهوتنا وسنقصد البوابة الصغيرة. لو مرّ شخص نعرفه وكان يروم وجهتكما سأطلب منه اصطحابكما.

لم أرغب في تناول الخبز، كي نذهب بسرعة. اتجهنا إلى البوابة الصغيرة.

لم يمرّ أحد، ما عدا الوقت. لكن انتهى الأمر بمرور شخص مّا. سنيور بايْشُو ساعي البريد، كان مارًّا من هنا. ألقى بتحية الصباح على جلوريا، رفع قبعته وقبل باصطحابنا.

قبلت جلوريا لويس وقبلتني. سألتني وهي تبتسم، مُتأثرة:

-وقصة الجنديّ والجزمة...

-لم يكن هذا صحيحا. لم أقصد ذلك الكلام. ستتزوجين بقائد طائرة وسيحصل على الكثير من النجوم فوق كتفيه.

-لماذا لم تذهبا مع توتوكا؟

-توتوكا قال إنّه لن يذهب. وإنّه ليس مستعدا لسحب الأمتعة.

غادرنا. طلب منا سنيور بايْشُو أن نمشي في المقدّمة بينما كان هو يُوزّع الرّسائل على المنازل. ثمّ كان يُسرع الخُطى ويلحق بنا. عندما وصلنا إلى طريق «ريُو-ساو باولو» ضحك وقال:

«ابنيَّ، أنا مستعجل جدًّا. أنتما تعطلانني عن خدمتي. الآن، اذهبا من هذا الطريق، لا يوجد أي خطر».

وغادر مُستعجلاً، برزمة الرسائل والأوراق تحت ذراعه.

فكرتُ ثائرًا: «الجبان! يترك هكذا صغيرين على الطريق بعد أن وعد جلوريا باصطحابنا».

ضغطت بقوة أكبر على يد لويس، وواصلت السير. بدأت تظهر عليه علامات التعب. كان يمشي ببطء أكثر.

«هيّا لويس تشجّع. صرنا قريبيْن جدا. يوجد الكثير من اللُّعب».

مشى بسرعة أكبر يجرّ قدميه من جديد.

-زيزا، تعبتُ.

-سأحملك لبعض الوقت، هل تريد؟»

مدّ إليّ ذراعيه وحملته لبعض الوقت.

آيْ! كان ثقيلًا مثل الرصاص. عندما وصلنا إلى شارع «البروجريه»، كنتُ ألهث بشدّةٍ.

«ستمشي الآن قليلا».

دقت ساعة الكنيسة معلنة الساعة الثامنة.

-إنّها الساعة الثامنة؟ كان يجب علينا أن نصل هناك عند السابعة والنصف. لكن لا بأس، سيكون هناك الكثير من الناس وستكون هناك بعض اللعب. توجد شاحنة مليئة باللعب.

- زيزا، قدمي تؤلمني.

انحنيتُ.

«سأرخي قليلا من رباط الحذاء، وستكون الأمور أفضل».

مشينا ببطء أكثر. كان لديّ شعور بأننا لن نصل إلى السوق أبدا. فقد كان يتوجب علينا تجاوز المدرسة العامة ثم الانعطاف يمينا عبر شارع كازينو بانغو. لكن الأسوأ في الأمر كان الوقت الذي يطير شماتة فينا.

وصلنا إلى المكان، ميتيْن من التعب. لم يكن هناك أحد. لا أثر

أيضا لأي توزيع للُّعب. لكن بلى، لقد حصل توزيع اللُّعب، لأن الشارع كان ممتلئا بأوراق الحرير المُكشكش. كانت الأرض مزدانة بكل الألوان، مغطاة بالقطع الصغيرة من الأوراق المُمزَّقة.

بدأت أشعر بالقلق.

كُنا أمام الكازينو وكان السنيور كُوكينيُو يُغلق الأبواب.

سألتُ البوّاب، وأنا ألهث:

-سنيور كُوكينيُو، هل انتهى كل شيء؟

-كل شيء زيزا. لقد أتيتما متأخرين جدا. لقد كان اجتياحاً.

أغلق الباب نصف إغلاقةٍ ثم ابتسم بطيبة.

«لم يتبق شيء. حتى لأبناء إخوتي».

أغلق الباب تمامًا ثم خرج إلى الشارع.

-في السنة القادمة، عليكما أن تأتيا قبل هذا الوقت، أيها الكسولان الصغيران.

-لا بأس.

أجل، إنّ الأمر يبعث على الحزن. كنت حزينًا جدًّا ومحبطًا جدًّا إلى درجة أنني فضلتُ أن أموت.

-لنذهب ونجلس هناك. نحتاج أن نرتاح لبعض الوقت.

-أنا ظمآن، زيزا.

-عندما نمر أمام بيت سنيور روزمبيرغ، سنطلب منه كأس ماء. سيكفينا نحن الاثنين.

عندئذ، وحسب، اكتشف كل المأساة. لم يقل شيئًا. نظر لي وهو عابسٌ، بعينين كبيرتين.

«لا بأس، لويس. هل تعرف، حصاني الصغير «شعاع القمر»؟ سأطلب من توتوكا أن يغير العصا[1] وسأعطيك إياه كهديّة ميلاد».

لكنه انفجر باكيًا.

«لا، لا تفعل هذا. أنت ملك. أبي قال إنّه سمّاك لويس لأنه اسم ملك. ولا يمكن للملك أن يبكي في الشارع، أمام الجميع، هل تعلم؟».

ضممته إلى صدري وداعبت شعره المُجعّد.

«عندما أصبح كبيرًا، سوف أشتري سيارة جميلة مثل سيارة سنيور مانويل فالداريس. هل تعرفه، البرتغالي؟ ذاك الذي مرّ أمامنا في المحطة، ذات يوم حين كنّا نلقي بتحيّة الصباح على «مانجاريتبا»... حسنًا، سوف أشتري سيارة كبيرة مثل سيارته، مليئة باللعب، لك أنت فقط... لكن لا تبكِ، الملك لا يبكي».

تحطم قلبي في يأس من دون حدود.

«أقسم بأنني سوف أشتريها. سوف أقتل، إذا ما لزم الأمر، سوف أسرق...».

لم يكن عصفوري هو الذي يتكلم بداخلي. لا شكّ أنّه قلبي.

أجل، سوف أقوم بهذا. لِمَ لَمْ يكن المسيح الصغير إلى جانبي لقد

(1) تتمثل اللعبة في رأس حصان مركب على عصا يلهو الصغار بالركوب عليها كحصان.

كان يحب حتى الثور والحمار في الحظيرة[1] لكن أنا، لا. إنه ينتقم مني لأنني ابن للشيطان. لكن لويس لم يكن يستحق هذا، لأنه كان ملاكا. لا يمكن لملائكة السماء أن يكونوا أكثر طيبة منه...

وانسابت دموعي بطريقة تدعو إلى الشفقة.

-زيزا، أنت تبكي...

-سأتجاوز هذا. لكنني لستُ ملكًا مثلك. أنا مجرّد شيء لا نفع منه. طفل شرير جدًّا، أجل، شرير جدًّا.. أنا لا شيء سوى هذا.

-تُوتوكا هل ذهبت إلى المنزل الجديد؟

-كلاّ وأنت هل ذهبت؟

-أقوم بزيارة خاطفة له كلّما سمحت ظروفي بذلك.

-لماذا؟

-أريد أن أعرف ما إذا كان «مينجوينهو» بخير.

ضحك وواصل صقل ما سيصبح الجسم الجديد لشعاع القمر.

-من هو «مينجوينهو»، بحق الشيطان؟

-إنه جذع شجرة البرتقالات الحلوة، شجرتي.

-وجدت اسما مناسبا له. أنت ممتاز في إيجاد الأشياء.

-إذن، هل هو بخير؟

-لم ينمُ على الإطلاق.

---

(1) إشارة إلى الآيتين 14 و15 من سفر التكوين.

-ولن ينمو إذا كنت تقضي وقتك في النظر إليه. هل يعجبك؟ هكذا أردته؟

-أجل. تُوتوكا، أخبرْني، لِمَ أنت ماهرٌ في كل شيء؟ تصنع أقفاصا للعصافير، أقنانا للدجاج، قفافيز للنحل، أسيجة، حواجز...

- لأن الناس لم يولدوا ليكونوا كلهم شعراء بربطات عنق على شكل فراشة. لكن إذا أردت بإمكانك أن تتعلم أيضًا.

- أظن بأن لا. يجب أن يكون لديّ استعداد لهذا.

توقف لحظة ونظر إليّ نصف ضاحك، نصف غاضب من هذا الابتكار الجديد للعم إدموندو.

كانت ديندينيا في المطبخ. جاءت لتعدّ خبزًا محمّصًا بالنبيذ. كان هذا عشاء عيد الميلاد. هذا فحسب.

وجهت تعليقا لتوتوكا:

«انظر، توتوكا. هناك أناس ليس لديهم حتى هذا المقدار. إنّ العم إدموندو هو من وفّر المال لشراء النبيذ وغلال السلطة، والغداء، لليوم التالي».

كان توتوكا يقوم بالعمل من دون مقابل لأنه علم بقصة كازينو بانغو. على الأقل سيحصل لويس على شيء. شيء قديم، مستعمل، لكنه جميل جدًّا وكنت أحبه كثيرًا.

-توتوكا.

-نعم.

-هل تظن بأننا لن نحصل على شيء، لا شيء أبدًا، في عيد الميلاد؟

-أظن بأن لا.

-أخبرْني، بكل جديّة، هل تعتقد أنّني شرير جدًّا وأخرق كما يقول الجميع؟

- شرير، شرير، لا. ما يحدث هو أن الشيطان يتلبّسك.

-عندما يحل عيد الميلاد سأسعى بكلّ ما أوتيت من قوّة للتخلّص منه نهائيًّا! وأتمنّى من كلّ قلبي أن يولد المسيح الصغير ولو مرّة في حياتي من أجلي لا من أجل الشيطان الصغير.

-ربما في السنة القادمة... لماذا لا تفعل مثلما أفعل أنا؟

-كيف تفعل؟

-لا أنتظر شيئًا. وهكذا، لا أكون محبطًا. عدا عن كون المسيح الصغير ليس طيّبًا بالمقدار الذي يصفه به الجميع، ويتحدّث عنه الكاهن وكتاب التعليم المسيحي...

توقّف عن الكلام وظلّ مترددًا، متسائلًا ما إذا كان عليه أن يواصل قول ما يفكر فيه...

-إذن، كيف هو؟

-حسنًا، فلنقل بأنّك كنت شقيًّا جدًّا، وبأنك لم تستحق شيئًا. لكن لويس؟

- إنه ملاك.

- وجلوريا؟

- ملاك أيضا.

- وأنا؟

- حسنا، أنت، أحيانا تكون... تكون... تسرق لي أغراضي، لكنك طيّب جدًّا.

- ولالا؟

- إنها تضرب بقوّة كبيرة، لكنها طيبة. ذات يوم سوف تخيط لي ربطة عنقي التي على شكل فراشة.

-وجانديرا؟

-جانديرا متقلبة الطباع لكنها ليست شريرة.

-وماما؟

-ماما طيّبة جدًّا، يزعجها أن تضربني وحين تفعل لا تضرب بقوة أبدًا.

- وبابا؟

- آه! لا أعرف. ليس لديه حظ على الإطلاق. أظن بأنه يجب أن يكون مثلي، السيّئ في العائلة.

- إذن رأيت، الجميع طيّبون في العائلة. فلماذا لا يكون المسيح الصغير لطيفًا معنا؟ إذا ما ذهبت إلى الطبيب «فولهابير» سترى الطاولة بأكملها ممتلئةً بالأشياء وكذلك إذا ذهبت إلى الفيلاس-بُوَاس. أمّا لدى الدكتور «أدوكتو لُوز»، فحدّث ولا حرج....

للمرة الأولى، رأيت توتوكا على وشك البكاء.

«لهذا أفكر في أنّ المسيح الصغير أراد أن يولد فقيرًا فقط كي يحدث تأثيرًا. لاحقًا رأى أن الأثرياء هم فقط من يستحقون العناء... لكن دعنا لا نتحدث عن هذا الأمر. ربما ما قلته خطيئة كبرى».

كان قانطًا جدًّا إلى درجة أنه لم يعد يرغب في مواصلة الكلام، ولا حتى في رفع عينيه عن عصا الحصان التي كان يحاول جاهدا أن يجعلها متوازنة.

كان عشاءً حزينًا جدًّا من الأفضل عدم التفكير فيه مجدّدًا. تناول الجميع الطعام من دون أن يقولوا شيئا وبالكاد تناول أبي القليل من الخبز المُحمص. لم يرغب في حلق ذقنه، ولا في أي شيء. كما لم نذهب لحضور قدّاس منتصف الليل. الأسوأ أن لا أحد تكلم مع أحد. فبدا وكأن السهرة مأتم المسيح الصغير لا الاحتفال بمولده.

أخذ أبي قبعته وخرج فجأة منتعلًا خُفّه المنزلي، من دون أن يقول «إلى اللقاء» ومن دون أن يتمنى ميلادًا سعيدًا. أخرجت ديندينيا منديلها ومسحت عينيها، وطلبت المغادرة برفقة العم إدموندو. ترك العم إدموندو قطعة من خمسمائة رايس تنزلق في يدي وأخرى مثلها في يد توتوكا. ربما كان يودّ أن يعطينا أكثر، لكنه لم يكن يملك المزيد. ربما كان يرغب في أن يعطي القطع لأطفاله الذين كانوا في المدينة بدلاً من إعطائها لنا. لذلك ضممته بقوة بين ذراعيّ. كان ذلك من دون شك الدليل الوحيد لليلة الاحتفال تلك. لم يتلقّ أحد قبلةً ولا قيلت

له كلمة طيّبة. ذهبت أمي إلى غرفتها. أنا متأكد من أنها كانت تبكي في الخفاء. وكنا نرغب جميعنا في أن نبكي نحن أيضًا. اصطحبت لالا العم إدموندو وديندينيا حتى البوابة الصغيرة وعلّقت، وهي تنظر إليهما يبتعدان بخطوات صغيرة، وببطء شديد:

«يبدوان عجوزيْن طاعنيْن في السنّ، مُرهقيْن من كل شيء..».

وممّا زاد من حزننا هو جرس الكنيسة الذي ملأ الليل بالأصوات المبتهجة. وارتفعت بضعة شماريخ في السماء كي يرى الله سعادة الآخرين.

عندما عدنا إلى البيت، غسلت جلوريا وجانديرا الأواني المتسخة وكانت عينا جلوريا محمرتين كما لو أنها بكت بكاءً شديدًا. أخذت هيئةً جديّةً وقالت لي ولتوتوكا:

«حان الوقت كي يذهب الأطفال إلى النوم».

قالت ذلك وهي تنظر إلينا. كانت تعلم أنّه لم يعد هناك هذا المساء أطفال بيننا. كنّا كلّنا كبارًا، كبارًا وبائسين، نأخذ نصيبًا من التّعاسة، كلٌّ بمقدار.

ربما كان كل ذلك بسبب ضوء المصباح نصف المنطفئ الذي عوض النور الكهربائي بعد أن قطعته الشركة. ربما...

كان الملك الصغير: السعيد الوحيد بيننا. كان نائمًا وهو يمتص إبهامه. أوقفتُ الحصان، قريبًا جدًّا منه. ولم أستطع منع نفسي من تمرير يدي على شعره بلطف. كان صوتي يفيض حنانًا.

«صغيري».

عندما عمّ الظلام كامل البيت سألتُ بصوت خافت:

-كان الخبز المُحمّص لذيذًا، أليس كذلك يا توتوكا؟

-لا أعرف. لم أذقه.

-لماذا؟

-كان لديّ شيء عالق في حلقي، لا شيء من الطعام كان يمرّ عبر حلقي... هيّا لننم. عندما ننام، ننسى كل شيء».

نهضتُ مثيرا ضجة في سريري.

-إلى أين تذهب، زيزا؟

-سأضع صندل التنس الخاصّ بي أمام الباب.

-لا تضعه، هذا أفضل.

-بلى، سأضعه. من يعلم، ربما تحدث معجزة. أتعلم، توتوكا، أرغب بشدّة في الحصول على هدية. لا شيء سوى هديّة واحدة. لكن يجب أن تكون جديدة. هديّة فقط لأجلي لا غير...

استدار إلى الجانب الآخر ودفن رأسه تحت الوسادة.

ما إن استيقظت حتّى ناديتُ توتوكا.

- هل نذهب لنرى؟ أقول لك بأنني سأحصل على شيء.

- أنا، لن أذهب لأعرف ما إذا كانت هناك هديّة أم لا.

- أمّا أنا، فسأذهب.

فتحتُ باب الغرفة. ولخيبتي الكبيرة وجدت صندل التنس فارغًا. اقترب توتوكا وهو يفرك عينيه.

«ألم أخبرك بهذا؟».

اندلع بداخلي مزيج من الكره والثورة والحزن. ودون أن أتمكن من السيطرة على نفسي صرختُ:

«ما أشقى أنْ يكون للمرء أب فقير...».

حوّلت نظري عن صندل التنس ورأيتُ قدمين تنتعلان بابوجين تتوقفان أمامي. كان أبي واقفًا ينظر إلينا. كانت عيناه واسعتين من الحزن. بدا وكأن عينيه أصبحتا كبيرتين جدًّا، كانتا كبيرتين حتى ليمكن القول بأنهما قادرتان على أن تملآ شاشة سينما «بانغُو». كان هناك ألم بالغ، ألم فظيع جدا في عينيه إلى درجة أنّه لو رغب في البكاء لما استطاع ذلك. استمر في النظر إلينا دقيقة امتدت بلا نهاية، ثم ودون أن يقول شيئًا مرّ من أمامنا. كنّا محُطمين، عاجزين عن التفوه بأيّ كلمة. تناول قبعته من المنضدة وعاد إلى الشارع. عندها فقط تحسّس توتوكا ذراعي.

«أنت شرير، زيزا، شرير مثل ثعبان. لهذا السبب...».

ثم سكت، متأثرًا شديد التأثر.

«لم أنتبه لأنّه كان إلى جانبي».

-أنتَ سيّئ، وقاسي القلب. أنت تعرف بأن بابا من دون عمل منذ فترة طويلة. ولهذا السبب لم أستطع أمس ابتلاع الطعام وأنا أتطلّع إلى وجهه. ذات يوم سوف تصبح أبًا وسوف تفهم ما الذي نشعر به في مثل تلك اللحظات.

وأكثر من ذلك، كنتُ أبكي.

«لكنني، لم أرَ، توتوكا، لم أرَ...».

رغبتُ في المغادرة جريًا باتجاه الشارع، أردت أن أتعلق بساقيْ أبي وأنا أبكي. رغبت في أن أقول له إنّني كنتُ سيّئًا جدًّا، شريرا جدًّا. لكنني ظللت جامدًا، من دون أن أعرف ما الذي يتوجب عليّ فعله. كان عليّ أن أجلس على سريري. ووقتها تأملتُ صندل التنس فارغًا كليًّا، في نفس الموضع. فارغًا مثل قلبي الذي يطفو من دون هدفٍ.

«لماذا فعلتُ هذا، يا إلهي؟ خاصّة اليوم. لماذا كنت أكثر سوءا مرّة أخرى في حين كان كل شيء في منتهى الحزن؟ كيف يمكنني أن أنظر إلى أبي عند الغداء؟ حتى سلطة الفواكه لن تستطيع المرور عبر حلقي».

لاحقتني عيناه الكبيرتان، كانتا كبيرتيْن مثل شاشة سينما «بانغو». أغمضت عينيّ وكنت أراهما دائما، كبيرتيْن، كبيرتيْن جدا...

اصطدم كعب قدمي بصندوقي الخاص بمسح الأحذية وخطرت لي فكرة. بذلك قد يغفر لي أبي كل شرّي.

فتحت صندوق توتوكا واستعرت منه مرة أخرى علبة الدهان لأنّ علبتي كانت فارغة تقريبًا. لم أقل شيئًا لأيّ كان. بدأتُ السير في الشارع حزينًا من دون أن أتفطن لوزن الصندوق. بدا لي وكأنني كنت أمشي على مرأى منه، وأتعذّب وهو ينظر إليّ.

كان الوقت مبكرا جدًّا. ولا شكّ في أنّ الجميع نائمون بسبب قُدّاس منتصف الليل والعشاء. كان الشارع مكتظا بالأطفال الذين كانوا يعرضون لعبهم ويقارنون بينها. زاد هذا من إحباطي. كانوا

كلهم أطفالاً طيبين. لا أحد منهم قادر على القيام بما قمتُ به. توقفتُ قرب «بؤس ومجاعة» آملاً أن أجد زبونًا. كانت البقالة / الحانة مفتوحةً حتى في ذلك اليوم. لم يكن من العبث إطلاق هذا الاسم عليها. فالناس يأتون إليها بملابس عسكرية، منتعلين أخفافًا منزلية، أو قباقب لكنهم لا يأتون إليها قط منتعلين أحذية.

لم أتناول قهوة لكنني لم أكن أشعر بالجوع على الإطلاق. كان ألمي يعلو على أي نوع من الجوع. مشيتُ حتى شارع «البروغريه». تجولتُ قرب السوق. جلستُ على الرصيف أمام مخبزة السينيور «روزمبيرك»، لكن لا شيء.

تتالت الساعات ولم أتوصل إلى أيّ شيء. لكن كان يتوجب عليّ أن أنجح. لا بدّ من ذلك.

ارتفعت درجة الحرارة وآلمني محمل الصندوق على كتفي. يجبُ تغيير مكاني. كنت أشعر بالعطش، ذهبتُ لأشرب من حنفيّة السوق.

جلست على مدارج المدرسة العمومية التي ستستقبلني قريبا. وضعتُ صندوقي على الأرض، كنتُ مثبط العزيمة. أسندتُ رأسي إلى ركبتيّ مغطيا إياه بذراعيّ. أفضّلُ الموت على العودة إلى المنزل من دون الحصول على ما أريد.

اصطدمت قدمٌ بصندوقي واستفهم صوتٌ وديّ أعرفه جيّدًا:

«يا ماسح الأحذية. لا نكسب المال بالنوم».

رفعتُ رأسي غير مُصدّق. كان السنيور «كوكينيُو»، بوّاب الكازينو. مدّ قدمًا، مررت الخرقة أولًا. ثم بلّلت الحذاء ومسحته.

ثم بدأت في وضع «الدهان» بعناية.

«من فضلك، سيدي، هل يمكن أن ترفع بنطالك قليلًا؟».

فعل ما طلبته منه.

-هل تُلّمع الأحذية اليوم، زيزا؟

- لم أحتج إلى القيام بهذا أبدًا بقدر احتياجي اليوم.

- وهذا الميلاد، هل مرّ جيدا؟

- بشكل طبيعيّ.

ضربت على صندوقي ضربة بفرشاتي فغيّر قدمه. كرّرتُ العمليّة بعدها وانهكمت في التلميع. عندما أنهيتُ ضربت الصندوق ضربة جديدة وسحب قدمه.

-كم، زيزا؟

-مائتا رايس.

-لماذا مائتان فقط؟ يأخذون أربعمائة دائما.

-أستطيع أن آخذ نفس القدر عندما أصبح ماسح أحذية جيّدًا! لكن حاليًا، لا.

أخرج خمسمائة رايس وأعطاها لي.

-ألا تريد أن تدفع لي لاحقًا؟ لم أفعل شيئا حتى الآن، لا أستطيع إعادة الباقي لك؟

-احتفظ بالنقود لعيد الميلاد. إلى اللقاء.

-احتفالات بهيجة، سنيور «كوكينيُو».

ربما جاء لكي يقوم بتلميع حذائه بسبب ما وقع قبل ثلاثة أيّام...

منحني المال في جيبي شيئًا من الشجاعة التي لم تدم طويلاً، تجاوز الوقت الساعة الثانية بعد الظهر، كان الناس يتجولون في الشارع ولا شيء. لم يأت أحد، حتى ولو لمجرّد نفض الغبار عن حذائه مقابل قرش واحد.

توقفت عند عمود إنارة في شارع «ريُو-ساوُ باولو» وصرختُ أكثر من مرّة بصوتي الخافت:

«ماسح أحذية سيداتي سادتي!

ماسح أحذية، يا سيدي الطيب، ماسح أحذية. لمساعدة الفقراء في عيد الميلاد!».

توقفت بالقرب مني سيّارة من تلك التي يملكها الأثرياء.

انتهزت الفرصة كي أصرخ من دون أمل:

«لفتة صغيرة، دكتور[1]. لأجل مساعدة الفقراء!».

كان هناك في خلفيّة السيارة سيدة متأنقة الثياب وأطفال ينظرون إليّ. تأسفت السيدة.

«يا للمسكين الصغير، صغير جدًّا وبائس جدًّا. امنحه شيئًا، «أرتير».

لكن الرجل تفحّصني، متشكّكًا.

-إنه متشرد ذو حيلة. يستغل حجمه الصغير ويفعل هذا يوم

(1) دكتور المقصود بها سيدي كصيغة احترام وليس الطبيب.

عيد الميلاد.

-مع ذلك أريد أن أمنحه شيئا. اقترب، أيها الصغير.

فتحت حقيبتها ولوّحت بيدها عبر النافذة.

«لا، شكرًا سيدتي. أنا لا أكذب. يجب أن نكون فعلاً في حاجة لكي نعمل يوم الميلاد».

أخذت صندوقي، علّقته على كتفي ومضيت وأنا أمشي ببطء. اليوم، لم أكن أمتلك حتى القوة لكي أغضب.

لكن باب السيارة فُتح وبدأ طفل بالركض خلفي.

«خذ، أيها الولد الصغير. تقول لك أمي إنّها تصدق بأنك لست كاذبًا».

وضع خمسمائة رايس في جيبي ولم ينتظر أن أشكره... سمعتُ هدير محرك السيارة المبتعدة.

تجاوز الوقت الرابعة واستمرت عينا أبي في تعذيبي.

سلكتُ طريق العودة. عشر فرنكات لن تكفي. لكنّها قد تمنحني في بقالة «البؤس والمجاعة» تخفيضًا صغيرًا أو ربّما سيسمحون لي بدفع البقيّة في يوم آخر.

عند أسفل أحد الأسيجة، لفت شيء ما انتباهي. كان جوربًا أسود قديما وممزقًا. انحنيت لألتقطه. مططته على يدي فأصبح رفيعا جدًّا. خبّأته في صندوقي مفكّرا: «سيكون ثعبانًا جيّدًا».

ثم لمتُ نفسي: «في يوم آخر. اليوم، لا مجال لهذا».

اقتربتُ من بيت «فيلاس-بُواس». كان هناك حديقة كبيرة حول البيت وكانت الأرض مُبلّطة كلّها. كان «سيرجينيُو» يسير حول مشاتل الزهور فوق دراجة هوائية جميلة. ألصقت أنفي بقضبان البوابة كي أنظر.

كانت الدّراجة حمراء بخطوط صفراء وزرقاء. وكان معدنها لامعًا. رآني سيرجينيو وبدأ يقوم بالاستعراض أمامي. كان يلفّ بسرعة، يقوم بانعطافات، يتوقف ويحدث صريرًا بالمكابح. ثمّ اقترب مني.

-هل تعجبك؟

-إنها أجمل دراجة هوائية في العالم.

- اقترب من البوابة، ستراها بشكل أفضل.

كان سيرجينيُو من نفس عمر توتوكا ويدرس معه في نفس الفصل.

شعرتُ بالخزي لقدميّ الحافيتين لأنه كان ينتعل حذاء «ملمّعا» وجوارب بيضاء ومطاطات حمراء. كانت الأشياء تنعكس على حذائه لفرط ما كان لامعا. حتى أنني رأيت عليها عيني أبي تنظران إليّ... تنهدتُ.

-ما بك زيزا؟ أنت غريب الأطوار.

-لا شيء. عن قرب تبدو الدّراجة أكثر جمالا. هل تلقّيتها كهديّة في عيد الميلاد؟

-بلى.

نزل من الدراجة كي يتحدث على راحته أكثر وفتح البوّابة.

«كان أمرًا جنونيًا كل الهدايا التي تلقيتها. فونوغراف، ثلاث بدلات، كومة من كتب الحكايات، علبة أقلام ملونة كبيرة، وعلبة فيها مختلف أنواع الألعاب، وطائرة بمروحة تدور، وسفينتان بأشرعة بيضاء...».

أطرقت وفكرت في المسيح الصغير الذي لم يكن يحب سوى الناس الأثرياء، مثلما قال توتوكا.

-ما بك، زيزا؟

-لا شيء.

-وأنتَ... هل تلقيت الكثير من الأشياء؟

أومأت له برأسي أن لا، من دون أن أتمكن من الإجابة.

-لكن لا شيء؟ لا شيء على الإطلاق؟

-هذه السنة لم نحتفل بعيد الميلاد في المنزل. أبي من دون عمل.

-هذا غير ممكن. لم تحظوا ولو حتى بقليل من الكستناء، أو البندق والنبيذ؟...

-فقط الخبز المحمّص الذي قامت بإعداده ديدينيا وقهوة.

ظلّ سيرجينيو يفكّر.

«زيزا، إذا ما دعوتك، هل تقبل؟».

بدأ بتخمين ردّة فعلي. لكنني وعلى الرغم من عدم تناولي طعاما، لم أكن أرغب في تلبية دعوته.

«لندخل. ستجهّز لك أمي طبقًا. يوجد الكثير من الأشياء والكثير من الكعك...».

لم أجازف. تمت معاملتي بازدراء كثيرًا في الأيام الأخيرة. وسمعت أكثر من مرة: «سبق وأن قلت لك بأن لا تُدخل للبيت أطفال الشوارع هؤلاء».

-لا، شكرا جزيلا.

-حسنًا. وإذا ما طلبتُ من أمي أن تجهز كميّة من الكستناء وأشياء أخرى لأخيك الصغير، هل تحملها؟

-لن أقبل بذلك أيضا. يتوجب عليّ الانتهاء من عملي.

وقتها اكتشف سيرجينيو صندوقي لمسح الأحذية والذي كنتُ جالسا فوقه.

«لكن لا أحد يقوم بصبغ الأحذية يوم عيد الميلاد...».

- لقد انطلقت طيلة اليوم ولم أجنِ سوى عشرة فرنكات، بالإضافة إلى أنهم منحوني خمسمائة من باب الإحسان. يجب أن أكسب فرنكين إضافيين.

- لماذا، زيزا؟

-لا أستطيع أن أخبرك السبب. لكنني أحتاج إليها حتما.

ابتسم، لقد خطرت له فكرة كريمة.

-أتريد أن تلمّع حذائي؟ سأعطيك عشرة فرنكات.

-لن أقبل بهذا أيضًا. لا أقبل بأن أجعل الأصدقاء يدفعون لي.

- وإذا ما أعطيتك النقود، بمعنى إذا ما أقرضتك هذه المائتي «رايس»؟

- هل أستطيع أن أعيدها إليك لاحقًا؟

- مثلما تريد. حتى أنك تستطيع أن تدفع مقابلها عددًا من الكريّات.

- حسنًا، موافق.

أدخل يده في جيبه وأعطاني قطعة نقدية.

«لا عليك، لقد تلقيتُ الكثير من المال. حصالتي ممتلئة».

مرّرتُ يدي على عجلة الدراجة.

-إنها حقًّا جميلة.

- عندما تصبح أكبر وحين تعرف كيف تستعملها، سوف أسمح لك بأن تقوم بجولة، اتفقنا؟

-اتفقّنا.

ركضتُ بسرعة حتى بقالة «البؤس والمجاعة»، ملوّحًا بصندوقي لمسح الأحذية. دخلت مثل الإعصار، وأنا أخشى أن يكون المحلّ قد أغلق.

«هل مازال لديكم سجائر من النوع الرفيع؟».

تناول علبتين عندما رأى نقودا في راحة يدي.

«هاي...إنها ليست لك، زيزا؟».

قال صوت من خلفه:

-يا لها من فكرة! طفل غرّ بهذا الحجم!

-أنت لا تعرف الزبون. إنه ولد شجاع قادر على كل شيء.

-إنّ السجائر لأبي.

شعرتُ بسعادة هائلة وأنا أدير العلبتين بين يديّ.

-هذه أم تلك؟

-أنت تعرف.

-لقد عملت طيلة النهار كي أشتري هدية الميلاد هذه لبابا.

-صحيح، زيزا؟ وماذا أعطاك هو؟

-لا شيء، المسكين. مازال من دون عمل، تعلم.

بدا عليه التأثر وسكت كل الناس في البار.

-إذا كانت العلبة لأجلك، أي واحدة كنتَ لتختار؟

-الاثنتان جيّدتان. وسيكون كل الآباء سعداء لتلقي هدية مثل هذه.

- غلّف لي هذه، من فضلك.

غلّفها وكانت هيئته مضحكة قليلا وهو يعطيني العلبة. بدا وكأنه يريد قول شيء ما دون أن يتمكن من ذلك.

أعطيته النقود، ابتسم.

-شكرا، زيزا.

-أعيادا سعيدة، سيدي!...

بدأتُ بالركض حتى البيت.

كان الليل قد حلّ. وكان هناك لمبة فقط مضاءة في المطبخ. كان الجميع قد خرجوا، لكن بابَا كان جالسًا أمام الطاولة وهو ينظر بثباتٍ إلى الحائط. كان متكئًا على الطاولة بينما أسند ذقنه على يده.

-بابا.

-ماذا هناك، يا صغيري؟

لم يحمل صوته أية ضغينة.

«أين ذهبت طيلة النهار؟».

أريته صندوقي الخاص بمسح الأحذية.

وضعتُ الصندوق على الأرض وأدخلت يدي في جيبي كي أخرج العلبة.

«انظر، بابا. اشتريتُ لك شيئا جميلا جدا».

ابتسم، مدركًا كلّ ما كلفني إيّاه ذلك.

«هل يعجبك؟ كان الأجمل».

فتح الحزمة ونظر إلى التبغ مبتسما، لكن من دون أن يتمكن من قول أيّ شيء.

«دخّن واحدة، بابا».

توجّهتُ إلى الفرن لأخذ عود ثقاب. أشعلته وقربته من السيجارة التي وضعها في فمه.

ابتعدت لكي أشهد أوّل نفس. عندها حدث شيء بداخلي. ألقيت بالكبريت على الأرض. شعرتُ بأنني أختنق.

انفجرتُ في الداخل. انفجرتُ من ذلك الألم الكبير جدًّا الذي كنت أجتره طيلة اليوم.

نظرتُ إلى بابا، إلى وجهه المُلتحي، إلى عينيه.

تمكنتُ فقط من قول:

«بابا... بابا...».

طغت شهقاتي على صوتي. فتح ذراعيه و شدّني إليه بحنان.

-لا تبكِ، يا صغيري. ستحظى بالكثير من الفرص كي تبكي في الحياة إذا ما ظللت طفلاً عاطفيًّا إلى هذه الدرجة.

- لم أكن أريد، بابا.. لم أكن أريد قول... هذا.

- أعرف. أعرف. لم أغضب، لأنه، في العمق، أنت محقّ.

هدهدني للحظة.

ثم رفع وجهي ومسحه بقطعة قماش كانت ملقاة هناك.

«هكذا أفضل».

رفعتُ يديّ وداعبتُ وجهه. مرّرتُ أصابعي بلطف فوق عينيه مُحاولاً إعادتهما إلى مكانهما، كي لا تكونا كبيرتيْن إلى تلك الدرجة. كنتُ خائفًا، إن لم أفعل هذا، فإن عينيه ستتبعانني طيلة الحياة.

«هيّا، سأنهي سيجارتي».

تمتمتُ بصوتي الذي مازال مُشوّشا من التأثر:

-أنتم تعلمون، بابا، عندما ترومون ضربي لن أحتجَّ أبدًا بعد اليوم... تستطيعون ضربي بقدر ما تشاؤون...

- حسنًا، زيزا، حسنًا.

وضعني على الأرض، أنا ودموعي الأخيرة، وأخذ صحنًا من الخزانة.

«تركت لك جلوريا القليل من سلطة الفواكه».

لم أتمكن من ابتلاعها. جلس ووضع بعض ملاعق صغيرة في فمي.

«انتهى الأمر الآن، انتهى الأمر، صغيري؟».

قلت نعم بإشارة من رأسي، لكن الملاعق الأولى كان لها مذاق مالح. ولم تتمكن دموعي الأخيرة من التوقف.

4

العصفور، المدرسة والزهرة

البيت الجديد، حياة جديدة، وآمال بسيطة، مجرّد آمال.

كنت جالسًا على العربة، بين سنيور «أريستيدي» ومساعده، مبتهجًا مثل هذا اليوم الحارّ.

عندما غادرنا الطريق الممتلئ بالحجارة وسرنا في طريق «ريو- ساو باولو» كان هناك فرح سحري. انسابت العربة بلطف، وكانت هذه متعة. مرت بجانبنا سيارة جميلة.

«ها هي سيارة البرتغالي «مانويل فالداريس»».

وفي اللحظة التي كنا سنتجاوز فيها زاوية شارع «الإيكلوسيس»، ملأ الصباحَ صفيرٌ بعيد.

-هل تسمعون، سنيور ها هو «المانجاراتيبا»[1].

- تعرف كل شيء، أنتَ، هاه؟

- أعرف عويله.

كانت أرجل الخيول تنقر الطريق؛ تاك.. تاك. ولا شيء سوى ذلك. لاحظتُ أنّ العربة لم تكن جديدة تمامًا. بل العكس. لكنها

(1) المانجاراتيبا اسم أطلقه الأطفال على قطار يمر يوميًا.

كانت صلبةً وعمليّةً. خلال رحلتين سنكون قد جلبنا كل أسمالنا. لم يكن الحمار يبدو قويًّا جدًّا. لكنني قرّرت أن أكون لطيفًا.

- لديكم عربة جميلة، سنيور «أريستيدي».

- تقوم بالخدمة.

- والحمار جميل أيضًا. ما اسمه؟

- غجريّ.

لم تكن لديه رغبة في الحديث.

«اليوم، يوم رائع بالنسبة إليّ. إنها المرّة الأولى التي أركب فيها عربةً، والتقيت بسيارة البرتغالي وسمعتُ «المانجاراتيبا»».

صمت. لا شيء.

-سنيور أريستيدي، هل «المانجاراتيبا» أهم قطار في البرازيل؟

-كلاّ، إنه القطار الأهم على هذا الخط.

لم ينفع هذا في شيء. كم كان من الصعب أحيانًا فهم الأشخاص الكبار!

حين وصلنا أمام البيت أعطيته المفتاح وأجبرت نفسي على أن أكون ودودًا...

«هل تريدون أن أساعدكم في شيء ما؟

- ستساعدنا إذا كففت عن التحرّك بين سيقاننا. اذهب للعب، سأناديك حين نعود مُجدّدًا». امتثلتُ لكلامه وانصرفت.

«مينجوينهو، سنعيش منذ الآن قريبين من بعضنا البعض وإلى

الأبد. سأجعلك جميلاً حتى ليتعذر على أيّ شجرة أن تقارن نفسها بك. تعرف، مينجوينهو، اليوم سافرت على متن عربة كبيرة ومريحة جدًّا، وكأنها حنطور مثل الذي نراه في الأفلام. اسمع، كل ما سأعرفه، سآتي لأرويه لك، هاه؟».

كنت قد اقتربت من الأعشاب العالية للجدول وألقيت نظرة على الماء القذر وهو يجري.

-في ذلك اليوم، قيل إنّ اسم هذا النهر هو...نسيت؟

-الأمازون.

-هو ذاك. الأمازون. لا شكّ أنّه يعجّ هناك في الأسفل بزوارق الهنود المتوحشين، أليس كذلك مينجوينهو؟

-اصمت. هذا أكيد ولا ريب في ذلك».

كنّا بدأنا للتوّ محادثتنا عندما أغلق السنيور أريستيد الباب وناداني:

-أتبقى هنا أم تعود معنا؟

- سأبقى. لا شكّ أنّ أمي وأخواتي هنّ الآن في الطريق إلى هنا.

وواصلتُ فحص كل الأشياء في كل الزوايا.

في البداية، كنت أتصرّف بلباقة بسبب الخجل أو لأنني كنت أريد أن أعطي انطباعًا جيّدًا للجيران. لكنني بعد الظهر فكرت من جديد في الجورب الأسود. لويته على شكل سلسلة وقطعت طرف القدم. ثمّ عقدتُ مكان القدم خيطًا طويلاً احتفظت به من طائرة

ورقية. بدا من بعيد وأنا أطلقه بلطف، أشبه ما يكون بثعبان وفي العتمة سيعطي تأثيرًا ساحرًا.

في المساء، كان الجميع قد انصرفوا إلى أعمالهم. بدا أنّ البيت الجديد قد غيّر الحالة النفسيّة لكلّ فرد منّا فقد ساد فرح لم نشهده منذ فترة طويلة.

انتظرتُ قرب البوابة الصغيرة، من دون حراكٍ. كان الشارع سيئ الإضاءة لوجود المصابيح فوق الأعمدة، وشكلت شجيرات القرْبيُون العالية ظلالاً مؤطرة. لا شكّ أنّ هناك من يعمل ساعات إضافية في المصنع. لكنها لا تتجاوز الثماني ساعات إطلاقًا ومن المستحيل تقريبًا أن تصل إلى تسع ساعات. فكرت في المصنع للحظة. لم أكن أحبه. كان صفيره حزينا أثناء الصباح، وأسوأ بكثير عند الخامسة. كان المصنع تنينًا يبتلع الناس كل يوم ويتقيّؤهم منهكين في المساء. ولم أكن أحبه أيضًا لأن السيد سكوتفيلد فعل هذا بأبي...

حذار! أطلّت امرأة. كانت تحمل شمسيّة تحت ذراعها وحقيبة في يدها. وكان من الممكن أن نسمع صوت باطن حذائها الخشبي الذي كان يطقطق في الشارع.

ركضت لأختبئ خلف البوابة الصغيرة ولأجرّب استعمال الثعبان. فامتثل. كان في منتهى الإحكام. عندها انكمشت على نفسي، في ظلّ الخليج ممسكًا بالخيط في يدي. اقترب القبقاب، اقترب، اقترب، اقترب، أكثر قليلًا وهُوبْ! بدأتُ في سحب خيط الثعبان. انزلق ببطء وسط الشارع. لم أكن أتوقّع هذا. أطلقت المرأة

صرخة مدوّية أيقظت الشارع. ألقت في الهواء بحقيبتها وشمسيتها ووضعت يديها على بطنها من دون أن تتوقف عن الصراخ:

«آه! يا إلهي! النجدة! ثعبان! إليّ! ساعدوني!..».

فُتحت الأبواب وتركتُ كل شيء، قفزتُ حتى البيت ودخلت إلى المطبخ. فتحت باندفاع سلّة الغسيل المتسخ واختبأت هناك، بعد أن سحبت الغطاء فوقي. تناهى إلى سمعي صراخ النسوة بينما كان قلبي يخفق من الانفعال.

«آه! يا إلهي، سأفقد جنيني البالغ من العمر ستة أشهر»؟

في تلك اللحظة، لم أعد قلقًا فقط، بل بدأت في الارتجاف.

قام الجيران بإدخالها، وتواصلت دموعها وتأوهاتها.

-لم أعد أتحمّل، لم أعد أتحمّل، إلاّ الثعبان، أنا أخشى الثعابين كثيرًا.

-اشربي قليلا من ماء زهر البرتقال. إنه مهدّئ. اطمئني، انطلق الرجال لملاحقته حاملين عصيًّا وفأسًا وفانوسًا يهتدون به».

يا لَكل هذا الهرج والمرج الشيطاني لثعبان بائس من القماش! لكن الأسوأ أن أفرادًا من العائلة ذهبوا أيضًا ليستطلعوا الأمر. جانديرا وأمي ولالا.

«إنه ليس ثعبانًا، انظروا. إنه جورب قديم».

نسيتُ وسط خوفي الشديد سحب الثعبان. قُضي عليّ.

فخلف الثعبان كان هناك الخيط والخيط يؤدي إلى الحديقة. ثلاثة

أصوات أعرفها جيدا صرخت في الوقت نفسه:

«إنه هو!».

لم يعد الثعبان هو الملاحق الآن. نظرن تحت الأسرة. لا شيء. مررن بالقرب مني، توقفت عن التنفس. خرجن للبحث من جهة الكوخ.

خطرت لجانديرا فكرة.

«أعتقد بأنني أعرف!».

رفعت غطاء السلة وقادتني من أذنيّ حتى قاعة الطعام.

ضربتني أمي بقسوة هذه المرّة. طار القبقاب واضطررت إلى الصراخ لكي أخفّف من الألم وكي تتوقف عن ضربي.

«أيها الشرّير الصغير. ليتك تعرفُ كم هو شاقّ أن تحمل الواحدة منّا جنينًا عمره ستة أشهر داخل بطنها».

علقت «لالا» بسخرية.

-يبدو أنه انتظر كثيرا حتّى يقوم ببداياته في هذا الشارع!

-الآن إلى السرير، أيها الشقيّ.

خرجتُ وأنا أفرك المكان المكدوم واضطجعت على بطني. من حسن الحظ أن بابا كان قد ذهب ليلعب الورق. بقيت في العتمة مبتلعًا دمعةً أخيرةً ومفكّرًا في أنّ السرير أفضل علاج لشفاء الضرب على المؤخرة.

استيقظتُ باكرًا في اليوم التالي. كان عليّ أن أقوم بشيئين مهمين:

أولا، إلقاء نظرة خلسة. إذا كان الثعبان مازال هناك، سآخذه وأخفيه داخل قميصي. يمكن أن ينفعني في أماكن أخرى. لكنه لم يكن موجودًا. سيكون من الصعب إيجاد جورب آخر يشبه ثعبانًا بذلك القدر.

عدتُ أدراجي وغادرت باتجاه منزل ديندينيا. يجب أن أتحدّث إلى العم إدموندو.

دخلتُ وأنا أعلم مسبقًا بأنه كان من المبكّر جدًّا ذهابي في ذلك الوقت بالنسبة إلى إيقاع حياته كمُتقاعد. لن يكون قد خرج بعد ليلعب اليانصيب، ويفرفش قليلا، مثلما يقول، ويقتني الجرائد.

في الواقع، كان في الصالون منهمكا وحده في القيام بلعبة ورق مُبتكرة.

«بركاتك، عمي!».

لم يجبني. كان يتظاهر بعدم سماعي. جميع من في البيت يقولون بأنه عادةً ما يتصرّف هكذا حين لا تثير المحادثة اهتمامه.

معي، لم يكن الأمر هكذا، لا. بالإضافة إلى أنه لم يكن أبدًا أصم تمامًا عندما أتحدّث إليه. سحبتُ كمّ قميصه وفكرت مرة أخرى في أنّ حمالات بنطلونه بمربعاتها السوداء والبيضاء كانت فعلًا جميلة.

«آه! إنه أنت..».

ادّعى بأنه لم يرني.

-ماذا تُسمى هذه اللعبة الفرديّة عمي؟

-إنها «ساعة حائط».

-جميلة.

كنت أعرف مُسبقا أوراق اللعبة. لكنني لم أحبَّ كثيرًا «البستونيين»[1]، لا أعرف لماذا يبدون وكأنهم خدم ملوك.

-هل تعلمون، عمي، جئتُ لأتحدث إليكم بخصوص مسألة.

-دعني أنهي اللعبة. وبعدها سنتحدث.

لكنه سرعان ما خلط كل الأوراق.

-لعبة فردية ناجحة؟

-كلاّ.

كدّس الأوراق ووضعها جانبًا.

-حسنا، زيزا، إذا كانت هذه المسألة تخصّ النقود -وقام بحركة بأصابعه- فأنا مُعدم.

- ولا حتى قرش لشراء الكريّات؟

ابتسمَ.

«ربما قرش صغير، من يعلم؟».

كان سيضع يده داخل جيبه، لكنني أوقفته:

-كنت أمزح، عمي، لم أكن أقصد ذلك.

-إذن ماذا تقصد؟

شعرتُ بأنه مبتهج من نضجي المبكّر فمنذ بدأتُ القراءة من دون أن أتعلّم، تحسّنت الأمور كثيرًا.

---

(1) جمع بستونّي، الشاب في لعبة الورق.

-أردتُ أن أعرف شيئًا مُهمًّا جدًّا. هل تستطيعون الغناء من دون أن تغنّوا؟

-لا أفهم.

-هكذا -وغنيتُ «كوبليه» من أغنية «كابانون».

-لكنك تغنّي، أليس كذلك؟

-هذا هو بالضبط. أريد أن أقوم بنفس الشيء في الداخل من دون أن أغنّي من الخارج.

أضحكته سذاجتي، لكنه لم يكن يعرف إلى أين أريد الوصول.

-هو ذا، عمّي، حين كنت صغيرًا جدًّا، كنتُ أعتقد بأن في داخلي عصفورًا يغنّي، كان هو الذي يغنّي.

-حسنًا، إنها لأعجوبة أن يكون لدينا عصفور مماثل.

-لم تفهموني. الآن، لم أعد أؤمن حقًّا بعصفوري. لكن عندما أتكلّم وأرى بداخلي...؟

أدرك قصدي وضحك من ارتباكي.

-سأشرح لك زيزا. هل تعرف ما هذا؟ هذا يعني بأنك تكبر. عندما نكبر، هذا الشيء الذي يتكلّم ويرى، مثلما تقول، يُسمى الوعي. إنه الوعي الذي يقود إلى اليوم الذي أخبرتك بأنك ستصل إليه قريبا...

-سن الرشد.

-هذا جيّد، ها أنت تتذكّر. يحصل إذن شيء استثنائي. يكبر

الوعي، يكبر ويملأ رأسنا كلّه وقلبنا كلّه... ويتجلى في عيوننا وفي كل ما نقوم به.

-فهمت. والعصفور؟

-خُلق العصفور من قِبَل الله كي يساعد الأطفال الصغار على اكتشاف الأشياء. بعد ذلك، وحين تنتفي حاجة الطفل إلى العصفور، يعيده إلى الله. فيضعه الله داخل طفل صغير آخر ذكيّ مثلك. هذا جميل، أليس كذلك؟».

ضحكتُ، كنتُ سعيدا لأنني أمتلكُ وعيًا.

-بالطبع. الآن، سأذهب.

-والقرش؟

-ليس اليوم. أنا مشغول جدًّا.

غادرتُ صوب الشارع مفكّرًا في كل هذا. وتذكرت أمرًا حزينًا جدًّا. كان توتوكا يمتلك أنثى قرقف[1] جميلة جدًّا. كانت تتسلق فوق إصبعه بلطف حين يغير لها حبوبها. حتى أنه كان يمكننا ترك الباب مفتوحًا، دون أن تهرب. ذات يوم نسيها توتوكا خارجًا في الشمس فأردتها الشمس الحارقة. رأيتُ من جديد توتوكا ضامًّا إياها بين يديه، كان يبكي دون توقف وهو يضغط العصفورة الميتة على وجنته. كان يقول:

«لن أحصل بعد اليوم على عصفور، مطلقًا».

كنتُ قريبًا منه وقلتُ له:

(1) القرقف: عصافير القرقف طيور صغيرة ومكتنزة، ومناقيرها صغيرة وسميكة.

«وأنا أيضًا لن أفعل، توتوكا، لن أحصل على عصفور أبدًا».

عدتُ إلى البيت. اتجهتُ مباشرة صوب مينجوينهو.

«شروروكا»[1]، جئت للقيام بأمرٍ ما.

- للقيام بماذا؟

- سننتظر قليلاً.

- حسنًا.

جلست وأسندتُ رأسي إلى جذعه الهش.

-ما الذي سننتظره، زيزا؟

-سننتظر أن تمرّ سحابة جميلة في السماء.

-للقيام بماذا؟

-سأطلق عصفوري. أجل، لم أعد بحاجة إليه..

تطلّعنا إلى السماء.

«أهذه يا مينجوينهو؟».

نهضتُ. كنت شديد التأثر بشدّة، فتحتُ قميصي. شعرتُ بأنه يغادر صدري الهزيل.

«طر أيها العصفور الصغير، طر عاليًا. اصعد وحُطّ على إصبع الله. سيرسلك نحو ولد صغير آخر وستغني لأجله مثلما غنيت لأجلي. وداعًا، ياعصفوري الجميل!».

شعرتُ بفراغ كبير بداخلي.

---

(1) شروروكا: صيغة تحبّب يطلقها زيزا على شجرته.

-انظر، زيزا. لقد حطّ على إصبع السحابة.

-لاحظتُ ذلك.

أسندتُ رأسي إلى قلب مينجوينهو ونظرتُ إلى الغيمة وهي تبتعدُ.

«لم أكن شريرًا معه أبدًا».

أدرتُ وجهي صوب غصنه.

-شروروكا.

-ماذا هناك؟

-هل من السيّئ أن نبكي؟

-ليس من السيّئ مطلقًا أن نبكي أيها الأحمق. لماذا؟

-لا أعرف. لم أعتد بعد على ذلك. لديّ شعور بأن في قلبي قفصًا صغيرًا فارغًا...

نادتني جلوريا باكرا جدا.

«أرني أظفارك؟».

عرضتُ يديّ فاستحسنت نظافتها.

-الآن الأذنان.

أوه! زيزا.

اصطحبتني إلى المغسلة، بلّلت منشفة ودلكتني بالصابون بقوّة.

«لم أرَ مطلقًا شخصًا يقول إنّه محارب «بيناجيه» ويكون قَذِرًا إلى هذه الدرجة! اذهب وانتعل صندلك، سأبحث لك عن

ملابس لائقة».

باشرت النبش داخل درجي. نبشت طويلاً. لكنّها كلما نبشت، لم تعثر إلاّ على القليل. كانت كل سراويلي إمّا مثقوبة ومهترئة، أو مرتّقة ومرقّعة.

«لا أحد سيخطئ التقدير. يكفي فتح هذا الدرج كي نعرف أي طفل فظيع أنت. ارتدِ هذا، فهو الأقل سُوءًا».

ثمّ ها نحن ننطلق في إتجاه الاكتشاف الرائع الذي سأقوم به.

وصلنا إلى المدرسة. جلب كثير من الناس أبناءهم ليسجّلوهم.

«تصرّف بطريقةٍ جيّدةٍ ولا تنس ما أَخْبَرتُكَ به، زيزا».

كنّا جالسين داخل قاعة مكتظة بالأطفال الذين ينظرون كلهم إلى بعضهم البعض. وأخيرا، حان دورنا ودخلنا إلى مكتب المديرة.

-أخوكِ الصغير؟

-بلى، سيدتي. لم تستطع أمي القدوم لأنها تعمل في المدينة.

نظرت إليّ بانتباه، كانت تحمل نظاراتً كبيرةً تبرز كبر عينيها وسوادهما. والمضحك أن لها شوارب مثل الرجال. وقد يكون هذا هو السبب الذي جعلها مديرةً.

-أليس صغيرًا أكثر من اللازم؟

- إنه نحيفٌ مقارنةً بعمره. لكنه يعرف القراءة مسبقًا.

-كم عمرك، أيها الصغير؟

-سأبلغ سنتي السّادسة في 26 فبراير، سيدتي.

-جيّد جدًّا. سنجهّز بطاقتك. سنبدأ بالوالدين.

ذكرت جلوريا اسم أبي. وحين جاء اسم ماما قالت فقط: «إستيفانيا دي فاسكونسيلوس». لم أتمالك نفسي وتخلّيتُ عن سلوكي الحسن.

«إستفانيا بيناجيه دي فاسكونسيلوس».

-كيف؟

أحسّت جلوريا بالخجل.

«إن اسم أمي «بيناجيه». إن ماما من عائلة هندية».

كنت فخورًا جدًّا لأنني كنت بالتأكيد الوحيد الذي يملك اسمًا هنديًا في هذه المدرسة.

ثم وقّعت جلوريا ورقة وظلّت ساكنةً، مترددةً.

-أمر آخر، يا بُنيّة؟

-أريد أن أعرف، بخصوص الزيّ الرسمي... تعرفون... بابا من دون عمل ونحن فقراء جدًّا.

وهذا ما تم تأكيده عندما استدعتني المديرة كي ترى قامتي وثيابي المرتّقة.

كتبت رقمًا على ورقة وطلبت منّا الذهاب لمقابلة دُونا يُولاليا.

انهدشت دونا يُولاليا أيضا من حجمي الصغير ومنحتني أصغر زيّ تمتلكه وهبني مظهر صوصٍ في ملابسه الداخليّة.

-إنه الوحيد الذي لديّ، لكنه كبيرٌ عليه. يا له من طفلٍ نحيلٍ.

- سآخذه وسأقصّر فيه.

غادرتُ بمنتهى السعادة مع هديّتي المتكونة من زيّين رسميين. تخيّلت ردّة فعل مينجوينهو وهو يراني في بدلتي التلمذية الجديدة.

كنت أروي له يوميًّا كل شيء. كيف كانت الأمور وكيف لم تكن.

«يرنّ جرسٌ كبيرٌ. لكنّه لم يكن بحجم جرس الكنيسة. هل ترى؟ كلاّ، يدخل الجميع إلى الساحة ويبحثون عن مكان وجود مُعلمتهم. ثم تصفّنا في طابورٍ أربعة فأربعة، ونعود إلى الفصل مثل الخراف. نجلس أمام مكتب له غطاء يُفتح ويُغلق، نخبّئ أغراضنا بداخله. يجب أن أتعلّم العديد من الأناشيد لأن المعلمة قالت إنّ المرء، لكي يكون برازيليًا صالحًا ومواطنًا، يجب أن يعرف نشيدنا الوطني. عندما أحفظه سأغنيه لك، أليس كذلك، مينجوينهو؟..».

وتتابعت الأشياءُ الجديدةُ. الخصوماتُ. واكتشافُ عالمٍ كل شيء فيه جديدٌ.

«يا صغيرة، إلى أين تذهبين مع هذه الزهرة؟».

كانت ظريفةً وجميلةً، تُمسك في يدها كتابهَا وكرّاستهَا وكان لها ضفيرتان صغيرتان.

-سأقدّمها إلى معلمتي.

-لماذا؟

-لأنها تحبّها. ولأن كل التلامذة المجتهدين يقدّمون زهرة إلى معلمتهم.

-هل يستطيع الصبيان أن يحملوا زهورًا أيضًا؟
- إذا كانوا يحبّون مُعلمتهم، يستطيعون ذلك.
- آه! حقًّا؟
- حقًّا.

لم يحمل أحدٌ أيّ زهرةٍ لُمدرّستي، دُونا سيسيليا بايمْ. ربّما لأنها بشعة. لولاَ اللطخة التي تشوّه عينها، لما كانت بهذه البشاعة. لكنها كانت الشخص الوحيد الذي يمنحني من وقتٍ إلى آخر فلسًا كي أشتري فطيرةً محشوّةً من متجر الحلويات عندما يحين وقت الاستراحة.

عاينتُ بقية الفصول، كان هناك فوق كل الطاولات وعاءٌ فيه ورودٌ. ما عدا فصلي حيث ظلّ الوعاءُ فارغًا.

لكن مغامرتي الأكبر هي هذه:

-تعرف، مينجوينهو، اليوم لعبت لعبة الخفاش.

-مثل هذا «اللوسيانو» الشهير الذي حدثتني عنه، ذاك الذي كان يفترض به أن يأتي ليعيش معنا؟

-لا، أيها الساذجّ. قمت بلعبة الخفاش خلف سيارة. تنتظر حتى تمر سيارة ببطء أمام المدرسة وتتعلّق بعجلة الاحتياط وتسير مع السيارة، إنها أعجوبة. عندما نقترب من التقاطع ويخفّف السائق من السرعة ليتأكد ما إذا كان هناك سيارة أخرى قادمة، تقفز. لكن يجب أن تنتبه جيّدًا وأنت تقفز. إذا ما قفزت بسرعة كبيرة، ستجد مؤخرتك على الأرض وذراعيك مسلوختين كليًّا.

وثرثرت ورويتُ له كلّ ما يحدث داخل الفصل وفي وقت الاستراحة. ليتكم رأيتموه وهو ينتصب مفاخرًا عندما أبلغته بأن دونا سيسيليا بايم قالت أثناء حصّة القراءة، بأنني أفضل من يقرأ، وأنني من يمتلك أفضل نُطقٍ. لكن هذا أحْدثَ لي هذا قلقًا وقرّرت أن أسأل العم إدموندو في أقرب فرصة ما إذا كان لديّ حقًّا نطقٌ جيّدٌ.

-ولكي نعود إلى لعبة الخفاش، وأعطيك فكرةً عنها، فإنّها لا تقلّ إمتاعًا عن امتطاء غصنك كما لو كان حصانًا.

- لكنك معي لا تتعرّض إلى أيّ خطرٍ.

- لا يوجد خَطَرٌ؟ وعندما تعدو مثل مجنونٍ في سهول الغرب. عندما نذهب لاصطياد الجواميس والثيران الأمريكية، أنسيت؟.

كان عليه أن يعترف بأنني كنت مُحقًّا، لأنه عندما يتجادل معي لا يتمكّنُ أبدًا من أن يكون صاحب الكلمة الأخيرة.

-لكن هناك واحدة، مينجوينهو، هناك سيارة لم يتجرأ أحد على ركوبها. هل تعرف أيّها؟ السيارة الكبيرة للبرتغالي مانويل فالداريس. أتعرف اسما بهذه البشاعة، مانويل فالداريس...

-بلى إنه بشع. لكنني أفكر في أمرٍ مّا.

-هل تظن بأنني لا أعرف في ماذا تفكر؟ بلى، مينجوينهو، لكن ليس حاليًّا. دعني أواصل تدريبي الآن... وبعدها، سأخاطر بركوبها.

ومرّت الأيام في سعادة مثالية. ذات صباح، جئتُ إلى المدرسة

وفي يدي زهرة هديّة لمعلمتي. تأثرت بها كثيرا وقالت لي إنّني «جنتلمان».

-هل تعرف ماذا تعني جنتلمان، مينجوينهو؟

- جنتلمان، هو شخص ذو تربية عاليةٍ، مثل الأمير تقريبًا.

كل يوم، كنت أستمتع أكثر داخل الفصل وأجتهد أكثر. لم يشتك مني أحد أبدًا. كانت جلوريا تقول بأنني كنت أترك شيطاني الصغير حبيسًا داخل الدرج وأتحوّل إلى طفل آخر.

-هل تعتقد بأن هذا صحيح، مينجوينهو؟

-بكل تأكيد أعتقد هذا.

-هكذا إذن، وأنا الذي كنت سأحكي لك سرًّا، لن أطلعك عليه.

ابتعدتُ مستاءً. لكنه لم يقلق، لأنه كان يعرف بأن مزاجي السيّئ لا يدوم.

كان من المفترض أن يتكشّف السرُّ هذا المساء، كان قلبي يخفق بشدّة من الفزع. وأخيرًا أطلق المصنع صفّارته وخرج العمّال والموظفون. كانت أيام الصيف تمتدُّ بلا نهايةٍ قبل أن يحلّ الليل. ظللتُ عند البوابة الصغيرة أتأمّلُ الأشياء، من دون التفكير في الثعبان أو أي شيء آخر. ظللتُ جالسًا في انتظار أمي. ما أثار استغراب جانديرا التي سألتني ما إذا كنتُ أشعر بألم في البطن لتناولي غلالاً لم تنضج بعدُ.

لاح خيالُ أمّي عند زاوية الشارع. كانت فعلاً هي. لا أحد في العالم يُشبهها. قفزت من مكاني وركضت للقائها.

«بركاتك، ماما».

قبّلتُ يدها. وعلى الرغم من الإضاءة الضئيلة للشارع، كنتُ ألاحظ الإرهاق باديا على وجهها.

-عَمِلتم كثيرًا اليوم، ماما؟

-كثيرًا، يا صغيري. كان الجوّ حارًّا لا يطاق بالقرب من آلات النسيج.

-هلاّ أعطيتموني حقيبتكم، أنتم متعبون[1].

وحملتُ الحقيبة التي كانت تحتوي على قِدرها الفارغة.

-الكثير من الحماقات، اليوم؟

-لا شيء، تقريبًا ماما.

-لماذا كنت في انتظاري؟

كانت تريد معرفة السّبب.

-ماما، هل تحبّونني ولو قليلاً؟

-أحبّك مثلما أحبّ الآخرين. لماذا؟

-ماما، هل تعرفون «نادرينهو»؟ ابن أخت «البط الأعرج»؟

ضَحِكَتْ.

-أتذكّرهُ.

-هل تعلمون، ماما، لقد جهّزت له أمّه بدلةً جميلةً جدًّا. خضراء مع شريطة بيضاء. وسترة صغيرة تُزرّر حتى الرقبة. لكنها

(1) زيزا يخاطب والدته والراشدين الأكبر منه بصيغة الجمع vous من باب الاحترام...

صغيرة جدًّا بالنسبة إليه. وليس لديه أخ كي يستفيد منها. قال إنّه يريد بيعها...هل تريدون شراءها؟

- أوه! يا صغيري! الأوضاع صعبةٌ جدًّا.

- لكننا نستطيع الدفع على مرتين. والسترة ليست غالية. إنه لا يبيع التصميم.

كنت أكرّر جُمل جاكوب بائع الملابس المُستعملة.

«ماما، أنا التلميذ الأكثرُ اجتهادًا في فصلي. المعلّمة قالت إنّني سأحصل على نقطة جيّدة... اشتروه لي، ماما. منذ وقت طويل، لم أحصل على لباسٍ جديدٍ».

كان صمتها قد بدأ يثير قلقي.

-اسمعي، ماما، إذا لم أحصل على هذه، لن أحصل أبدًا على بدلتي كشاعرٍ. لالا ستصنع لي ربطة عنق بعقدةٍ كبيرةٍ من حرير مُتبقٍ لديها.

-هذا جيّد، يا صغيري. سأعمل ساعاتَ اللّيل لمدّة أسبوعٍ وسأشتري لك بدلتك.

آنئذٍ قبّلتُ يدها وسرتُ حتى البيت مسندًا وجنتي على يدها.

هكذا حصلتُ على بدلتي كشاعرٍ. كنتُ جميلاً جدًّا إلى درجة أنّ العم إدموندو أخذني ليلتقط لي صورًا فوتوغرافية.

المدرسة. الزهرة. الزهرة. المدرسة...

كلّ شيءٍ سارَ على ما يُرام إلى أن دخل غُودُوفريدُو إلى فَصْلي.

اعتذرَ ثمّ ذهبَ ليتحدّثَ إلى دونا سيسيليا بايم. أعرف فقط بأنه أشار إلى الزهرة في الكأس. بعدها خرَج. نَظرتْ إليّ بعينينِ حزينتينِ.

عند نهاية الحصّةِ، نادتني.

«أريد أن أحدّثكَ عن أمرٍ مّا، زيزا. انتظر لحظة»

لم تكن لتنتهي من توظيب أغراضها في حقيبتها. كان من الواضح أنها لم تكن ترغب في الحديث إليّ وبأنها كانت تحاول أن تمنح نفسها الشجاعة الكافية. أخيرًا حَسَمَتْ أمْرَها.

«غُودُوفريدُو حدّثني بأمرٍ سيّءٍ جدًّا بخصوصك، زيزا. هل هذا صحيح؟».

أومأتُ بالإيجاب بحرَكةٍ من رأسي.

«بخصوص الزهرة؟ هذا صحيح، سيّدتي.

- كيْف فَعلتْ؟

- أستيقظ مبكّرًا، وأعبُر حديقةَ سيرْجينيُو. عندما تكون البوّابة مواربةً أدخل بسرعةٍ وأسرِق زهرةً. لكن يوجد الكثير من الزهور فَلا يُكتشفُ أمري.

- أجل. لكن هذا ليس جيّدًا. لا يجب أن تفعَل هذا. هذه ليست سرقة ولكنها فعليًّا اختلاس.

- لا، دونا سيسيليا. ملكية العالم تعود إلى الله، أليسَ كذلك؟ كل ما هو موجود في العالم ملكٌ لله؟ إذن، الزهور أيضًا..».

ظلّتْ مذهولةً لمنطقي.

«لم أكن أستطيع القيام بخلاف ذلك، سيدتي. في منزلي، لا يوجد زهور. وهي غالية الثمن...لم أكن أريد أن يظلَّ الكأسُ فوق طاولتكِ فارغًا».

تنهدت.

-في بعض الأحيان تمنحونني النقودَ كي أشتري فطيرة «سوفليه»، أليس كذلك؟

-أستطيعُ أن أعطيكَ النقودَ كلّ الأيام. لكنّكَ لا...

-لا أستطيعُ القَبول بذلك يوميًّا.

-لماذا؟

-لأنه يوجد أطفالٌ آخرونَ ليس لديهم ثمن لُمجةٍ.

سَحَبتْ منديلَها من جيبها ومرّرتهُ خلسةً فوق عينيها.

-هل تعرفون لا كوروخينها؟

-من هي لا كوروخينها؟

-تلك البنت الصغيرة السوداء التي يساوي طولها طولي، صفّفت أمها شعرها في ضفيرتين وشدّتها برباط حذاء.

- فهمتُ. دُوروتيليا؟

- هذه هي، سيدتي، إن دوروتيليا أفقر مني. ولا يرغب بقيّةُ الأطفال في اللّعب معها لأنها سوداء وفقيرة جدًّا. لذلك تظلّ على الدوام منزوية في أحد أركان المدرسة. أنا أتقاسم معها الفطيرة التي تعيطنها لي.

هذه المرّة، احتفظَت بالمنديل طويلاً فوق أنفها.

«أحيانًا، بَدَلاً من إعطائها لي، يمكنكم أن تُعطوها لها. تعملُ والدتُها في غسل الثّياب ولديها أحَدَ عَشَرَ طفلًا، كلّهم صغار. ديندينيا، جدّتي، تعطيها كل أيّام السّبت الفاصولياء السوداء والأرز كي تساعدهم. وأنا أقاسمها فطيرتي لأنّ ماما علّمتني بأنه يتوجب علينا تقاسم القليل الذي نملكه مع الأفقر منّا.»

انهمَرت دُموعُهَا.

-لم أكن أريد أن أجعلَكم تبكون. أعدُكم بأنني لن أسرق زهورًا بعد اليوم وبأن أكون تلميذًا مجتهدًا أكثر فأكثر.

- الأمر لا يتلّعق بهذا، زيزا. تعال هنا.

أخذت يديّ بين يديها.

-ستعدني بأمر مّا، لديك قلبٌ رائعٌ، زيزا.

-سأعدكم، لكنني لا أستطيعُ خداعكم. لا أمتلكُ قلبًا رائعًا. أنتم تقولون هذا لأنكم لا تعرفونني في البيت.

-لا أهميّة لهذا. بالنسبة إلي، أنت تملكه. من الآن فصاعدًا، لا أريدُ أن تجلبَ لي الزهور. إلا إذا مُنحتَ واحدة. هل تعدني بهذا؟

-أعدك بهذا. لكن ماذا بخصوص الكأس؟ سيبقى دائمًا فارغًا؟ لن يكون هذا الكأس فارغًا أبدًا بعدَ اليوم. عندما سأنظر إليه، سأرى دائما أجملَ زهرةٍ في العالم. وسأقول: إنّ من أهداها لي هو أفضل تلامذتي. اتفقّنا؟

كانت تَضحكُ الآن. أطلَقتْ يدي وقالت بعذوبة:

«الآن، تستطيع أن تذهب، يا قلبًا صغيرًا من ذهب..».

5

أريد أن أراك تموت داخل زنزانة

أوّل شيء، مفيد جدًّا، نتعلّمه في المدرسة، هو أيّام الأسبوع. وكوْني سيّد أيّام الأسبوع، كنتُ أعرف أنّه كان يوم الثلاثاء. اكتشفتُ لاحقًا بأنّه كان يتردّد على شوارع الجهة الأخرى من المحطّة ثلاثاءً بعد آخر وبأنّه يمرّ في الثلاثاء التالي من جهتنا.

لذلك، هربتُ هذا الثلاثاء من المدرسة. لم أشأ أن يعلم توتوكا بهذا، وإلاّ فإنّني سأضطرّ لرشوته بالكريّاتِ كي لا يحكي شيئًا في البيت. وبما أن الوقت كان باكرًا ويفترض فيه أن يظهر عندما تدقّ ساعة الكنيسة معلنةً عن السّاعة التاسعة، قمتُ بجولةٍ في الشوارع. شوارع خالية من الأخطار بالطبع. توقفتُ في البداية عند الكنيسة وألقيتُ نظرةً على التماثيل. كنت أشعر بقليلٍ من الخوف من هذه التماثيل الجامدة، المُحاطة بالشموع. كانت الشموعُ ترتجفُ فيرتجف لها القدّيسون. تساءلتُ ما إذا كان من الشّائع أن يكون المرء قدّيسًا ويظلّ طيلة الوقت جامدًا، جامدًا.

قمتُ بجولةٍ في غرفة المُقدسات، كان سنيور زكريّا مشغولاً بإزالة الشموع القديمة عن الشمعدانات ووضع شموعٍ جديدةٍ. صَفّ القطع الصغيرة المشتعلة على الطاولة.

«صباح الخير، سنيور زكريّا».

توقّف، رفع نظاراته فوق طرف أنفه، نخر بأنفه، استدار وردّ:

-صباح الخير، أيها الصغير.

- هل تريدون أن أساعدكم؟

كنت ألتهم بنظراتي أطراف الشموع.

-كي تجعلني في فوضى! ألم تذهب إلى المدرسة اليوم؟

-بلى! لكن المُعلمة لم تأتِ اليوم. أسنانها تؤلمها.

-آه!

استدار مُجدَّدًا مُعيدًا نظّاراته إلى طرف أنفه.

-كم سنّك، أيّها الصغير؟

-خمس سنوات. لا، ستّ. كلاّ، خمس بالضبط.

- في النهاية، خمس أم ستّ؟

فكّرتُ في المدرسة وكذبت:

-ستّ.

-حسنا، في سنّ السادسة، أنت في العمر الذي تبدأ فيه التعليم المسيحيّ.

-وهل بإمكاني ذلك؟

-لِمَ لا؟ يكفي أن تحضر الخميس بعد الظهر، عند الساعة الثالثة. هل تريدُ أن تأتي؟

-بحسب الظروف. إذا ما أعطيتني قطع الشموع، سآتي.

- لماذا تريد قطع الشموع؟

كان الشيطان قد همس لي بأمرٍ مّا. كذبتُ مجدَّدًا:

-أريدها لأطلي بها خيط طائرتي الورقية، هذا سيجعله أكثر صلابةً.

-إذن خُذها.

التقطتُ الشموع المحترقة ووضعتها في حقيبتي مع كرّاساتي وكتبي. كنتُ أشعر وكأنني أطيرُ في السّماء من فرط سعادتي.

-شكرًا جزيلاً، سنيور زكريّا.

-لا تنسَ، حسنًا؟ الخميس.

غادرتُ راكضًا. وبما أن الوقت كان باكرًا، فقد كان لديَّ مُتّسعٌ من الوقت للقيام بهذا. ركضتُ قبالة الكازينو ولأنّ الشارع كان خاليًا من المارّة اجتزته وفركتُ بأسرع ما يمكن قطع الشمع الصغيرة على الرصيف. ثم عبرتُ الطريق جريًا وانتظرتُ، جالسًا أمام أحد أبواب الكازينو الموصدة. أردت أن أرى من بعيدٍ من سينزلقُ الأوّل.

كنتُ على وشك أن أصابَ بالإحباط. فجأةً، سمعتُ صوت شيءٍ يقعُ! وثبَ قلبي، إنّها دُونا كورينيا، والدة نانزيزينا، كانت خارجةً من أحد المنازل على كتفها شال وبيدها كتابٌ في طريقها إلى الكنيسة.

«أيتها العذراء القديسة!».

أكان لزامًا أن تكون هي الضحيّة، صديقة أمّي، وابنتها نانزيزينيا

كانت الصديقة الحميمة لجلوريا. لم أكن أمتلك الشجاعة لأرى ما حدث. ركضتُ بسرعةٍ حتى زاوية الشارع وتوقفتُ كي ألقي نظرةً إلى الوراء. كانت مرميّةً على الأرض وهي تصرخ.

أحاط بها النّاس ليعاينوا ما إذا كانت الإصابة خطرةً. لكنّ طريقتها في الصياح، تشي بأنّها أصيبت برضوضٍ بسيطة فقط.

«إنّهم هؤلاء الصبية الوقحون الذين يحومون هنا».

تنفستُ الصّعداء، شعرت بالارتياح، لكنّه ارتياح لم يدم طويلًا إذ شعرتُ بيد ورائي تقبض على حقيبتي.

«أنت من قام بهذا، أليس كذلك، زيزا؟».

سنيور أورلاندو كابيلو دي فوجو. بالفعل إنه هو الذي كان جارنا لفترةٍ طويلةٍ. فقدت القدرة على الكلام.

-أنت، نعم أم لا؟

-ستخبرون أهلي أليس كذلك؟

-لن أقول شيئًا. لكن استمع إليّ جيّدًا، زيزا؟ هذه المرة سأتجاوز الأمر لأن هذه العجوز لها لسان أفعى. لكن لا تتسلّ بتكرار الأمر، فقد يتسبّب الأمر في كسر ساق أحدهم.

تظاهرتُ بأنّي الأكثر طاعةً في العالم، فترك سبيلي.

عدت إلى التسكّع حول السوق في انتظار أن يصل. قبلها، مررت بمحلّ السنيور روزمبيرك لبيع الحلوى والمعجّنات، قلتُ له مع ابتسامةٍ:

«صباح الخير، سنيور روزمبيرك».

ردّ عليّ بصباح خير جافّة ولم يكن يبدو بأنه سيعطيني حلوى. ابن القـ...! لم يكن يعطيني حلوى إلا حين أكون برفقة «لالا».

«اسرع، هو ذاك».

في اللحظة نفسها، أعلنت ساعة الكنيسة التّاسعة. لم يتأخر قط. حرصت على متابعته من بعيد. انخرط في شارع «البروجريه» وتوقف عند الزاوية تقريبًا. وضع حقيبته على الأرض وألقى بسترته على كتفه اليسرى. آه! يا للقميص ذي المربعات الجميل! عندما أصبحُ رجلاً، سوف أحصل على قميص مثل هذا. بالإضافة إلى هذا كان لديه وشاح أحمر حول عنقه وقبعة منزاحة قليلاً إلى الخلف. عندها بدأ يصيح بصوتٍ قويٍّ ملأ الشارع بالبهجة:

«اقتربوا، أيها الناس الطيبون؟! هناك سلعٌ جديدة هذا اليوم!»

وكانت لكنته باعتباره من سكان باهيا، جميلة أيضا.

«نجاحات الأسبوع. *«كلاوديونور»!... «معذرة»...* آخر أغنية لشيكو فيوُولا. آخر أسطوانةٍ ناجحة لفايسينتي سيليستينو. استمعوا، أيها النّاس، إنها آخر صيحة».

كانت طريقته في نطق الكلمات وكأنه يغنّيها، تسحرني.

تمنّيت لو كانت *«فاني»*. كان يغنّيها دائما وكنت أريد حفظها. عندما يصل إلى مقطع: *«داخل زنزانة أريد أن أراك تموت»*، كنت أرتعش، لفرط جمالها. ضخّم صوته وبدأ بإنشاد *«كلاوديونور»*.

ذهبتُ لأرقص السامبا على تلّ المانغيرا
نادتني بنيّة بطريقة، بطريقة...
لا، لا لن أذهب، زوجها مفتول العضلات
أنا خائف من سكينه...
لا، لا لن أذهب، زوجها مفتول العضلات
ولكي يعيل عائلته يعمل بكدٍّ في الميناء...

توقّفَ وأعلنَ:
«أغانٍ بكلّ الأسعار، ستّون أغنية جديدة! آخر أغاني التانغو».
«فاني». هَأنذَا سعيد.

انتهزت فرصة كون المسكينة كانت وحدها
لم يسعفها الوقت كي تنادي بصوتها الواهن
طعنتَها من دون رحمة أو شفقة.

(يصبح صوته حلوًا، عذبًا، حنونًا حدّ إذابة القلب الأكثر قسوة).

المسكينة، مسكينة «فاني» التي كان لها قلب طيّب جدًّا
أقسم بالله بأنه يتوجّب عليك أن تتعذّب أيضًا...

داخل زنزانة أريد أن أراكِ تموت.

لقد طعنتها من دون رحمة أو شفقة

المسكينة، فاني المسكينة التي كان لها قلب طيّب جدًّا.

كان الناس يخرجون من منازلهم ويشترون ورقة باحثين عن أكثر ما يعجبهم. وكنتُ أنا ملتصقًا به بسبب *فاني*.

استدار نحوي بابتسامةٍ عريضةٍ.

-هل تريدُ واحدةً، أيها الصغير؟

-لا، سيّدي. ليس لديّ نقود.

-خمّنتُ ذلك.

أخذ حقيبته وخطا بضع خطواتٍ وهو يصرخ في الشارع:

«فالس أغنية *«معذرة!» «أدخّن وأنا أنتظرك»* و*«وداعا»*، *«صبيان»*، أغاني تانغو أكثر انتشارا من *«ليلة الملوك»*. في المدينة لا يردّدون سوى هذه الأغنية... *«نور سماويّ»*، إنّها في منتهى الروعة. استمعوا إلى كلماتها!»

واستأنف بصوتٍ عال:

في عينيك يلتمع نور سماويّ وأعتقد أنني أرى

مطرا من النجوم يلتمع في فضاء الكواكب

أقسم لكِ بأنه لا يوجد في السماوات

عيون أكثر سحرا من عينيكِ...

أوه! اتركي عينيك تغرقان كي لا أنسى

القصة الحزينة لحب هدهده القمر...

عيناك اللتان تبوحان من دون كلام بمأساة

حب من دون أمل...

أعلن عن عناوين أخرى، باع بضع أوراق ورآني من بعيد مرّة أخرى. توقف وناداني بإشارة منه.

«اقترب، أيها الصبيّ الصغير».

امتثلتُ ضاحكًا.

-هل ستتوقف عن تعقّبي، نعم أم لا؟

-لا سيّدي. ما من أحدٍ في العالم يضاهيكم غِناءً.

بدا عليه الزّهو وبدأ يلين. وخالجني إحساسٌ بأنني في طريقي إلى الانتصار.

-لكن لديك مظهرُ عَلقة حقيقية.

-ذلك أنّي أردت أن أعرف ما إذا كنتم تغنّون بشكلٍ أفضل من فانسينتي سيليستينو وشيكو فيولا. وها أنت تغنّي أفضل منهما.

ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ عريضة.

-هل سبق وأن استمعت إليهما، أيها الصبيّ الصغير؟

-أكيد! سيدي. على فونوغراف ابن الدكتور أدوكتو لُوزْ.

- هذا لأن الفونوغراف قديم أو ربما كانت الإبرة مُتضرّرةً.

- لا، سيّدي. كان الفونوغراف جديدًا تمامًا تلقّاه الدكتور حديثًا. عندما تغنون، فأنتم الأفضل. فكّرتُ أيضًا في أمرٍ مّا.

- هيّا قل.

- أريدُ مرافقتكم. حسنًا. تُعلّمونني بِكَم تبيعونَ الاسطوانات. أنتم تغنّون، وأنا أبيعها. الجميع يشتري من الأطفال عن طيب خاطرٍ.

- هذه ليست فكرة سيّئة، أيها الصبيّ الصغير. لكن قل لي شيئًا. تريد أن تأتي معي لأنك تريد هذا. فأنا لا أستطيع أن أدفع لك.

- لكنني لا أريد شيئًا.

- إذن لماذا؟

- ذلك أنني أحبّ الغناء كثيرًا. أريد أن أتعلّم. وأرى أن أغنية *«فاني»* أجمل أغنية في العالم. وفي آخر النّهار، إذا ما رأيتم بأنكم قد بعتم جيّدًا، يمكنكم أن تمنحوني إسطوانةً قديمةً لن يشتريها أحد لأقدّمها هديّةً لأختي.

رفع قبعته وحكّ رأسه شبه الأصلع.

-عندي أختٌ كبرى اسمها جلوريا سأعطيها إيّاها. هذا كل شيء.

-حسنًا، لنذهب.

ثمّ غادرنا ونحن نغنّي ونبيع. كان هو يغني وكنتُ أنا أتعلم.

عندما حلّ منتصف النهار، نظر إلي، بشيءٍ من القلق.

-ألن تذهب إلى بيتك لتتناول الغداء؟

-لن أذهب قبل أن ننتهي من عملنا.

حكّ رأسه من جديد.

«تعال معي».

جلسنا معًا في حانة بشارع «سيريس»، أخرج شطيرةً كبيرةً من قاع حقيبته. أخذ سكّينًا من حزامه. سكّينًا مرعبًا. قطع قطعة من الشطيرة وقدّمها إليّ. ثمّ تناول كأسًا صغيرًا من النّبيذ وطلب كأسيْ ليموناضة لترافق وجبتنا الخفيفة... كان يقول وجبة خفيفة ناطقًا بحرف التاء في نهاية الكلمة. وبينما كان يرفع الشطيرة إلى فمه، تأمّلني مليًّا والفرح بادٍ في عينيه.

«هل تعرف، أيها الصّبي الصغير، أنت تجلب لي الحظ السعيد. لديّ مجموعة من الصّعاليك ولم تخطر ببالي يومًا فكرة اصطحاب واحد منهم لمساعدتي».

ابتلع جرعةً كبيرةً من الليموناضة.

-كم سنّك؟

-خمس سنوات. ستّ... خمس.

-خمس أم ستّ؟

-لم أتمّ بعدُ الستّ سنوات.

-حسنًا، أنت ولد صغيرٌ ذكيٌّ جدًّا وطيّبٌ جدًّا.

-هل هذا يعني بأننا سنلتقي الثلاثاء المقبل؟

ضحك.

-إذا رغبتَ في ذلك.

- بكلّ تأكيد أرغب في ذلك. عليّ أن أرتّب الأمور مع أختي. ستتفهّم الأمر. سيكون هذا جيّدًا، لأنني لم أذهب قطّ إلى الجهة الأخرى للمحطة.

-كيف تعرف أنني سأذهب هناك؟

-لأنني أنتظركم كل ثلاثاء. مرّة تأتون وأخرى لا. لذلك فكرتُ في أنّكم تذهبون من الجهة الأخرى لسكّة الحديد.

-وها هو رجل. ما اسمك؟

-زيزا.

-وأنا، أريوُوفالدو. هيّا صافحني.

أخذ يدي بين يديه الكبيرتين الخشنتين كي يُوطّد صداقتنا حتى الموت.

لم يكن صعبًا جدًّا إقناع جلوريا.

«لكن زيزا، مرّةً كلّ أسبوع، ماذا عن دروسك؟».

أريتها كرّاساتي، كان نسخي مكتوبًا جيّدًا. والعلامات كانت ممتازة. وأريتها بالمثل كرّاس الحساب.

«وفي القراءة، يا جودويا، أنا الأفضل».

مع ذلك، لم تحسم أمرَها.

«ما ندرسه، نكرّره خلال ستّة أشهر، دائما نفس الشيء. و يلزم وقت قبل أن تتعلم عصابة الحمير تلك.

ضحكت.

-يا له من تعبير، زيزا!

-هذا صحيح، جودويا، نتعلّم أشياء أكثر بواسطة الغناء. هل تريدين معرفة كل الأشياء الجديدة التي تعلّمتها؟ ثمّ إنّ العم إدموندو قد شرح لي المعاني. مثلا: سوء حظّ، سماويّ، كواكب. أضيفي إلى ذلك سأحضر لك أغنيةً كلّ أسبوع وسأعلّمك أجمل الأشياء في العالم.

- اتفقّنا. لكن توجد مشكلة أخرى. ماذا سنقول لأبي عندما يلاحظ بأنّك تتغيّب يوم الثلاثاء ولا تأتي لتناول الغداء؟

- لن يُلاحظ هذا. إذا ما سألكِ يومًا ستكذبين. ستقولين بأنني كنت أتناول الغداء مع ديندينيا. ستقولين بأنني ذهبت للقيام بمشتريات من عند نانزيزينا وأنني بقيتُ عندهم لأتغدّى».

بركاتك أيّتها العذراء القديسة! لحسن الحظ بأن هذا كان مجرّد احتمالٍ لأنه إذا ما عرفت تلك العجوز ماذا فعلتُ!...

انتهى الأمر بموافقتها، لأنها تعلم بأنها طريقة كي لا أبتكر حماقاتٍ وبهذه الطريقة سأجعلهم يضربونني أقل. بالإضافة إلى أنه سيكون من الرائع، يوم الأربعاء، البقاء تحت أشجار البرتقال أعلّمها الأغاني.

كان لديّ إحساسٌ بأنّ الثلاثاء لن يأتي أبدًا. ذهبت لانتظار سنيور «أريوُوفالدو» في المحطّة. عندما لا يفوته قطاره، كان يصل في الثامنة والنصف.

تسكعتُ في مختلف الأماكن، متأمّلا كل شيء. كنت أحبّ المرور أمام محل المرطّبات ورؤية الناس وهم ينزلون سلّم المحطّة. كان هذا مكانا جيّدًا لتلميع الأحذية. لكنّ جلوريا كانت تمنعني من هذا. إذ يمكن للشرطة أن تطردني وتأخذ صندوقي. ثمّ كان هناك القطار. لا أستطيع الذهاب إلى المحطة إلاّ إذا ما أعطاني السنيور «أريوُوفالدو» يده، حتى عندما نمشي على الجسر لنعبر الطريق.

رأيته يصل مستعجلاً. منذ «*فاني*»، كان مقتنعًا بأنني كنت أعرف ما الذي يحبّ الزبائن شراءه.

ذهبنا للجلوس على الحائط أمام المحطة، قبالة حديقة المصنع، فتح ورقة اليوم وأراني الأغنية وهو ينشد لي بدايتها. عندما لا أستحسنها، كان يختار أخرى.

«هذه جديدة: *معسولة اللسان*».

استأنف الغناء.

«هلاّ غنيتموها مرّة أخرى».

كرّر الكوبليه الأخير.

– سنبيعها كلّها سنيور أريوُوفالدو هذه، و«*فاني*» وأغاني التانغو.

جبنا الطرقات الممتلئة بالشمس والغبار. كنّا طائريْن مغرّديْن يهتفان لقدوم الصيف.

كان صوته الجميل الرنّان يوقظ الصباح.

«الأكثر نجاحًا طيلة أسبوع، طيلة شهر، طيلة سنة». *«معسولة اللّسان»* التي سجلها شيكو فيوُولا.

يشرق القمر، بلون الفضة،
في أعالي الجبل المُخضر.
وجيتارة مغني السيرينادا
عند نافذة محبوبته تشدو بلحن الصباح
على وقع لحن الشوق.
وعلى أوتار الجيتارة ذات القرار العميق
يعترف مغني المساء لجميلته
بكل ما يقوله قلبه لها...

هنا، كان يتوقف بعض الوقت ويوقع اللحن بحركة من رأسه فأرافقه بصوتي الصغير.

يا صورة جميلة لامرأة ساحرة
آه! لو أستطيع تشييد معبد لأجلك
أنت نوري، صورة أحلام يقظتي
أنتِ التي لا يتوجب عليها العمل، جميلتي معسولة اللسان...

كانت هذه الأغنية حدثًا! اندفعت الفتيات لشرائها، وكذلك الشبان، وأشخاص من مختلف الأعمار ومن مختلف الفئات.

ما أحببته على وجه الخصوص، هو بيع النشرات بأربعمائة وخمسمائة «رايس». عندما يتعلّق الأمر بشابة، كان الأمر متوقّعًا مسبقًا:

-نقودكم، دُونا.

-احتفظ بها لشراء حلوى.

بل إنني كنت أنتحل طريقة سنيور أريوُوفالدو في الكلام.

منتصف النهار، مثل العادة. دخلنا أوّل حانة اعترضتنا. التهمنا شطائرنا ونحن نتناول أحيانًا مياهًا غازيةً بمذاق البرتقال وأحيانًا مياهًا غازيةً بمذاق المشمش.

كنت عندئذٍ أدخلُ يدي في جيبي وأفردُ النقود فوق الطاولة.

«ها هو ذا، سنيور أريوُوفالدو».

كنت أدفع بالعملات المعدنية نحوه. كان يبتسم ويعلن:

-أنت صبيٌّ منضبطٌ جدًّا، زيزا.

- سنيور أريوُوفالدو. ما معنى «pitchounet» التي ناديتموني بها من قبل؟

- في بلادي، باهيا المُقدسة، يعني هذا طفل صغير جدًّا، ضعيف البنية، ضئيل...

حكّ رأسه ووضع يده أمام فمه كي يتجشأ. اعتذر وتناول عود سواكٍ. وظلّت النقود في نفس المكان.

«زيزا... خطرت ببالي فكرة: انطلاقًا من اليوم، تستطيع الاحتفاظ بالفكّة. في نهاية الأمر، نحن ثنائي يغنّي معًا».

- إذن أستطيع شراء «ماريا-مول»؟

- افعل ما تشاء. المال مالك.

- شكرا، أيها الرفيق.

ضحك لتقليدي له. نظرت إليه وأنا أتناول كعكتي المُحلاّة.

-هل نحن ثنائي يغنّي معًا فعلاً؟

-الآن، نعم.

-إذن، اسمحوا لي بأن أغني اللّحن المصاحب لأغنية «فاني». ستغنّون بصوتٍ قويٍّ وسأصاحبكم بصوت رقيق جدًّا.

-هذه ليست فكرةً سيّئة، زيزا.

-حسنًا. حين نعود إلى العمل بعد الغداء، سنبدأ «بفاني»، إنّها أغنية ناجحة جدًّا.

واستأنفنا عملنا تحت الشمس الحارقة.

بدأنا بـ «فاني» عندما وقعت الكارثة. وكانت دُونا ماريا دي بينيَا تتجه نحونا، مرتبكةً تحت شمسيّتها وكامل وجهها مُغطّى بمسحوق الأرز. توقّفت وهي تستمع إلى أغنيتنا، توجّس سنيور أريوُوفالدو المأساة ودفعني بمرفقه لأستأنف السّير مواصلًا الغناء. لكن من دون جدوى! كنت مفتتنًا جدًّا بالمصاحبة الموسيقية لأغنية *فاني* إلى درجة أنني لم أنتبه إلى أيّ شيء.

أغلقت دُونا ماريا دي بينيَا شمسيتها وطفقت تقرعُ الأرض بطرف حذائها. وعندما انتهيتُ، اتخذت هيئةً ساخطةً وصرخت:

-هذا جميل! إنه لمن الجميل بالفعل حمل طفل على غناء مثل هذا الفجور!

-دُونا، ليس في عملي ما ينافي الأخلاق. هذا عملٌ شريف، ولا أشعر بالخزي بسببه، هل فهمتم؟.

لم يسبق لي قط أن رأيتُ سنيور أريوُوفالدو متضايقًا إلى تلك الدرجة. كانت تريد الشجار، وسيكون لها ذلك.

-هذا الطفل ابنكم؟

-لا، سيّدتي، للأسف.

-ابن أخيكم أو أختكم، أحد أفراد عائلتكم؟

-ليس من عائلتي على الإطلاق.

-كم سنّه؟

-ست سنوات.

نظرت إلى قامتي متشكّكةً.

«ألا تشعرون إذن بالعار لاستغلالكم طفلًا صغيرًا؟».

-لا أستغل أيًا كان، دُونا. إنه يغني معي لأنه يريد هذا ولأن هذا يعجبه، هل تفهمون؟ ثم إنني أدفع له. ألا أدفع لك؟

أجبت بإشارة من رأسي أن نعم. وجدتُ الشجار رائعًا. كنتُ أرغب في أن أعطيها ضربة رأسٍ في بطنها كي أسمعها تسقط على الأرض. بُوم!

«اعلموا أنّني سأتخذ إجراءاتي. سأتحدث بهذا الخصوص إلى

السيد الخوري. سأتحدث بهذا الخصوص إلى قاضي القُصر. بل وسأتّصل بالشرطة».

في تلك اللحظة، سكتت وفتحت عينيها المذعورتين. كان سنيُور أريوُوفالدو قد سحب سكينه الكبير مُقتربًا منها. كنت أرى اقتراب اللحظة التي سيُغمى فيها عليها.

«اذهبوا، دُونا. اذهبوا. فورًا. لستُ شرّيرًا، لكن لديّ العادة السيئة بقطع ألسنة الساحرات العجائز الثرثارات كثيرًا اللاّتي يتدخّلن في حياة الآخرين..».

ابتعدت، مُتصلّبةً مثل مكنسة. وعندما ابتعدت قليلًا، التفتت وصوّبت شمسيتها بحركة ناقمة...

-سترون!...

-اختفي، يا ساحرة «سكرُونيوُنيو...!».

فتحت شمسيّتها وابتعدت متوترة الأعصاب جدًّا.

بعد الظهر، أحصى سنيُور أريوُوفالدو العائد.

«لقد بعتُ كل شيء، زيزا. أنت محقٌّ. أنت تجلب لي الحظ».

أعدتُ التفكير في دونا ماريا دي بينيَا.

-أتراها ستقوم بشيء مّا؟

-لا شيء، زيزا. في أسوأ الحالات، ستتحدث إلى الخوري عن الموضوع والخوري سينصحها: «الأفضل التخلّي عن الموضوع، دُونا ماريا. ناس الشمال أولئك لا يمزحون».

وضع المال في جيبه وطوى جرابه. ثم أخذ من جيب سرواله ورقة مطوية إلى أربعة.

«هذا، لأجل أختك جلوريا».

تمطّى.

«يا له من يوم أول!».

استرحنا لبضع دقائق.

-سنيُور أريوُوفالدو؟

-ماذا هناك؟

-ما الذي يعنيه ساحرة «سكرُونيوُنيو»؟

- ما أدراني، يا صغيري؟ عبارة تفوّهت بها وأنا في سورة غضب».

وانفجرت ضاحكًا وهو في منتهى السّعادة.

-هل كنتم تريدون حقًّا أن تفتحوا لها البطن؟

- بالطبع لا. كان هذا لإخافتها.

- لو فتحتم بطنها، ما الذي كان سيندلق منه، أمعاء أم حشوة مثل تلك الموجودة في الدُّمى؟

ربّت بودٍّ على وجنتي وهو يضحك.

«هل تريد أن أخبرك، زيزا؟ أظن بأنّ ما سيندلق منه هو الخـ..»

طفقنا نضحك نحن الاثنان.

«لا تخف. أنا عاجز عن قتل أحد، ولا حتى دجاجة. وأنا أخاف

كثيرًا من زوجتي إلى درجة أنها هي من تسدّد لي الضربات بعصا المكنسة».

نهض كي يذهب إلى المحطة. شدّ على يدي قائلًا:

«لمزيد من الأمان، لن نمرّ من هذا الشارع لبضعة أسابيع».

شدّ على يدي بقوّة أكبر.

«إلى الأسبوع القادم، أيها الرفيق».

وافقت بحركة من رأسي وصعد ببطء درج المحطة.

صرخ بي من أعلى الدرج:

«أنت ملاك، زيزا».

قلت له إلى اللقاء ثمّ بدأت في الضحك.

«ملاك! آه لو يدري..».

الجزء الثاني

عندئذ ظهر الطفل
يسوع في كامل حزنه

1
الخفّاش

«أسرع، زيزا، ستفُوّت المدرسة».

كنت جالسًا إلى الطاولة أتناول قهوتي مع خبزٍ جافٍّ من دون استعجال. وكالعادة، كان مرفقاي على الطاولة وأنا أنظر إلى الرزنامة المُعلّقة بمسمارٍ على الحائط.

كانت جلوريا متوتّرةً ومضطربةً. تنتظرُ على أحرّ من الجمر طيلة الصباح خروجنا كي تنغمس في الأعمال المنزلية بسلامٍ.

«هيّا بنا، أيّها العفريت الصغير. أنت لم تمشط شعركَ حتّى، عليك أن تحذو حذو توتوكا الذي يكون جاهزًا دائمًا في الوقت المحدّد».

ذهبت لتبحث عن مشطٍ لتسريح غرّتي الشقراء الصغيرة.

«هذا القطّ الأشقر لا يملك ثلاث شعراتٍ لتسريحها».

قامت برفعي عن مقعدي وتفحّصتني من قدميّ حتى رأسي. هل كان قميصي نظيفًا، وبنطالي؟...

«هيّا بنا الآن، زيزا».

وضعنا أنا وتوتوكا حقيبتينا على كتفينا ولم يكن يوجد بداخلهما سوى كتبنا وكرّاساتنا وقلمٌ. أمّا اللّمجة فلا سبيل إليها فهي من

نصيب الأطفال الآخرين.

تحسّست جلوريا حقيبتي، شعرت بوزن الكريّات وابتسمت، كنّا نمسك بأيدينا صنادلنا الخاصّة بالتنس والتي سننتعلها عند بلوغنا السّوق، قبل الوصول إلى المدرسة.

ما إن دلفنا إلى الشارع، حتى أطلق توتوكا ساقيه للريح، تاركًا إيّاي وحدي في الخلف. عندئذٍ، استيقظ الجنيّ الماكرُ داخلي. كنتُ مبتهجًا لتخلّي توتوكا عنّي، لأتصرّف كما يحلو لى. كان طريق «ريُو-ساو باولو» يفتنني. القيام بلعبة الخفّاش. سألعبُ لعبة الخفّاش. التعلّق بمؤخّرة السّيارات والشعور بهواء الطريق، بالسرعة في صرير الإطارات. كان هذا من أكثر الأشياء روعةً في العالم. جميعنا كنّا نقوم بهذا، توتوكا علّمني ذلك، وقد أوصاني على وجه الخصوص، بالوقوف جيّدًا بسبب السّيارات التي يمكن أن تأتي من الخلف. تخلّيتُ عن خوفي بسرعةٍ وحثّني حبّ المغامرة على ركوب السّيارات الأكثر صعوبة. أصبحتُ مُتهوّرًا جدًّا حتّى أنّني صعدتُ سيّارة سنيور لاليسالي بينما كانت تسير إلى الخلف، لم يكن ينقصني سوى سيّارة البرتغالي الرائعة. كانت حقًّا سيّارةً مذهلةً، يعتني بها جيّدًا. كان بوق السّيارة يُصدر صوتًا جميلاً، هديرًا أجشّ مثل خوار بقرةٍ في الرّيف. أمّا هو، مالك هذه الأعجوبة، فيبدو في هيئةٍ متغطرسةٍ، غير مشجّعةٍ على الإطلاق. حتّى يخيّل إلى من يرونه بأنّه يسوطهم، ويهدّدهم بالخصي قبل قتلهم. لا أحدَ من أطفال المدرسة كان يخاطرُ بلعبة الخفّاش مع سيّارته، أو على الأقلّ لم يجازف أحد.

عندما حدّثتُ مينجوينهو بهذا الخصوص، قال لي:

-لا أحد حقًّا، زيزا؟

-لا أحد حقًّا. لم يمتلك أحد الشجاعة.

انتبهتُ إلى أنّ مينجوينهو كان يضحك، لقد أدرك ما أفكّر فيه.

«لكنك تتحرّق شوقًا لكي تجرّب حظّك، أليس كذلك؟».

-بخصوص هذا، أجل. أعتقد بأن...

-ما الذي تعتقده؟

هذه المرّة، كنتُ أنا من يضحك.

-أخبرني بسرعة.

-أنت فضوليٌّ بصورةٍ رهيبة.

-إنّك تُسرّ لي دائمًا بما تعرف.. دائمًا لا تستطيع الامتناع عن هذا.

-هل تعلمُ شيئًا مينجوينهو؟ أغادر البيت عند السّابعة، أليس كذلك؟ عندما أصلُ إلى مفترق الطّرق، تكون السّاعة السّابعة وخمس دقائق. وعند السّابعة وعشر دقائق، يوقفُ البرتغالي سيّارته عند زاوية «بؤس ومجاعة» ويشتري علبة سجائر... في أحد هذه الأيّام، سأستجمعُ شجاعتي، أنتظرُ إلى أن يصعد داخل السيّارة وزُوم!...

-لن تمتلك الشجاعة...

-لن أملك الشجاعة يا مينجوينهو؟ سترى.

والآن هاهو قلبي يخفق. توقفت السيّارة ونزل. تركني تحدّي

مينجوينهو متردّدًا بين الشجاعة والخوف، لم أكن أريد الذهاب لكن الغرور دفعني إلى أن أحثّ الخطى. طفتُ حول الحانة وحشرتُ نفسي في زاوية الجدار. واغتنمتُ الفرصة لأنتعل صندل التنس الخاصّ بي. كان قلبي يخفق بقوّة إلى درجة أنني كنت خائفًا من أن يسمعهُ وهو داخل الحانة، خرج من دون أن ينتبه لأيّ شيءٍ. سمعتُ الباب يُفتح...

«إمّا الآن أو مطلقًا، مينجوينهو!».

وبوثبةٍ واحدةٍ تشبثتُ بإطار العجلة، منحني الخوف قوّةً. وكنتُ أعرف أنّ المسافة حتى المدرسة العامة كبيرة. استمتعتُ مسبقًا بانتصاري أمام رفاقي.

«آي..».

أطلقت صراخًا عاليًا جدًّا وحادًّا جدًّا حتّى أنّ النّاس اندفعوا نحو باب المقهى لرؤية من الذي تعرض لحادث.

كنتُ معلّقًا على ارتفاع خمسين سنتيمترًا من الأرض. كنتُ أتأرجح، أتأرجحُ.. وقد اشتعلت النّار في أذنيّ. كان هناك عيبٌ في مخطّطي. في غمرة انفعالي، نسيت أن أتأكّد ما إذا كان المحرّك يعملُ.

بدا وجه البرتغالي الكبير أكثر ضخامة. وكان شعاع من الغضب يومض في عينيه.

«إذن، أيها الشقيُّ، هذا أنت؟ غرّ مثلك يمتلك هذه الوقاحة!..».

أعاد قدميّ إلى الأرض. أطلق إحدى أذنيّ وهدّدني بذراعه الضخمة.

«كنتَ تعتقدُ بأنّني لم أنتبه إليك طيلة الأيام الماضية، عندما كنت تتجسّس على سيّارتي، أيّها الشقي؟ سأؤدّبك ولن ترغب في القيام بهذا مجدّدًا».

كان الإحساس بالعار يعذّبني حتّى أنساني ألمي. ورغبتُ في إطلاق سلسلة من الشتائم في وجه هذا الغاشم. لكنّه لم يطلقني، إذ يبدو أنّه خمّن ما يدور في ذهني وهدّدني بيده الطليقة.

«تكلّم! اشتمنيّ لماذا لا تتكلم؟».

كانت عيناي ممتلئتين بالدّموع، دموع الألم والإذلال بسبب النّاس الذين حضروا المشهد والذين كانوا يضحكون بطريقةٍ شرّيرةٍ. استمرّ البرتغالي في الاستهزاء بي:

«إذن، لماذا لا تشتمني، أيها الصّبي؟».

استيقظ بداخلي غضب وحشي وتمكنت من الإجابة عن سؤاله وقد امتلأ قلبي حقدًا:

«لا أقول شيئًا الآن، لكنّني أفكّر. عندما أصبح كبيرًا، سأقتلكم».

أطلق ضحكةً قلّدها الحاضرون.

«حسنًا، اكبر، أيّها الصّبي. أنا أنتظرك. لكن قبل هذا سألقّنك درسًا».

حرّر أذني بسرعةٍ ومدّدني على فخذه. ضربني ضربةً واحدةً، لكنها كانت من القوّة حتى ظننتُ بأنّ مؤخّرتي قد دخلت في معدتي. بعد هذا، أطلق سراحي.

ابتعدتُ مُترنّحًا، تتبعني القهقهاتُ السّاخرة. عندما بلغتُ الجهة الأخرى من طريق «ريُو-ساو باولُو»، تمكّنتُ أخيرًا من فرك مؤخرتي المُتألّمة. ابن القـ... سيرى! أقسمتُ بأن أنتقم. أقسمتُ بـ... لكنّ الألم تناقص بابتعادي عن أولئك الناس الملعونين. الأسوأ، حين ينتشر الخبر في المدرسة وسيستمرّ كبار السنّ بجُبنهم المعتاد في السخرية منّي طيلة أسبوع، إذا ما مررت من أمام الـ «البؤس والمجاعة». ما الذي سأقوله لمينجوينهو؟ يتوجّب عليّ إذن أن أغادر مبكّرًا وأن أعبر الطريق من مكانٍ آخر...

كنتُ في هذه الحالة الذهنية حين اقتربت من السوق. ذاهبًا لغسل قدميّ عند الصّنبور ولأنتعل صندلي. كان توتوكا ينتظرني بقلقٍ. لن أحكي له عن إخفاقي.

-زيزا، يجب أن تساعدني.

-ما الذي فعلته؟

-هل تتذكّرُ بِيبي؟

-هذا الشبيه بثور البارون دي كابانيما؟

-هو ذاته. سيضربني عند الخروج. ألا تريد أن تتشاجر معه بدلًا عنّي؟

- لكنّه سيقتلني؟

- أبدًا، أنت مُحبٌّ للشجار وشجاعٌ.

-حسنًا. عند الخروج؟

-عند الخروج.

ذلك هو توتوكا، يجلب لنفسه المشاجرات دائمًا وكنتُ أنا من يدفع الثمن. لكن هذا لم يكن يثير استيائي. سأفرغ في بِيبَى كلّ الغضب المتراكم ضد البرتغالي.

الحقيقة أنّني تلقيتُ في ذلك اليوم الكثير من الضربات حتّى انتهى بي الأمر بكدمةٍ على العين وذراعين مسلوختين.

كان توتوكا جالسًا على الأرض مع الآخرين، يشجّعني وهو يمسكُ بكتبه وكتبي على ركبتيه. وفي نفس الوقت، كان يُوجّهني.

«أعطه ضربة رأسٍ في البطن، زيزا. عضّه، أخدشه، إنّه كتلةٌ من الدهن. أعطه ركلةً جيّدةً».

لكن، وعلى الرغم من مُشجعيَّ ونصائحهم، لو لم يخرج سنيور روزيمبرغ من محلّه، كان سيتمُّ تحويلي إلى عجينة لحمٍ. ترك سنيور روزيمبرغ دُرجه وسحب بِيبى من ياقة قميصه وهو يرجّه.

«ألا تشعر بالعار؟ ولد ضخم مثلك يضرب طفلاً طوله بعلوّ ثلاث تفاحات؟».

كان لسنيور روزيمبرغ شغف سريّ، مثلما نقول في المنزل، بأختي لالا. هو يعرفنا وفي كلّ مرّة تحضر فيها مع أحدنا، كان يعطينا كعكًا مُحلّى وحلوى مع ابتسامةٍ عريضة تكشف عن التماعة أسنانه الذهبية.

لم أصمد وانتهى بي الأمرُ إلى أن رويتُ هزيمتي لمينجوينهو. أصلاً لم أكن أستطيع إخفاءها عنه بهذه العين البنفسجيّة والمُتورّمة. وعندما رآني بابا في تلك الحالة أعطاني أيضًا بضع ضرباتٍ خفيفةٍ

وقدّم موعظةً لتوتوكا. لم يكن أبي يضرب توتوكا قطّ. أمّا أنا، فبلى. لأنّني كنت رمز الشرّ مجسّدًا.

سمع مينجوينهو كل شيءٍ، دون أدنى شكٍّ. إذن لم لا أرويه له؟ استمع إليّ، ثائرًا وعندما انتهيتُ، قال لي بنبرةٍ ساخطةٍ.

-يا له من جبان!

-كان واحدًا من تلك الشجارات، لو رأيت..

وشيئًا فشيئًا رويتُ له كل ما حصل مع البرتغالي. كان منذهلاً لشجاعتي ونصحني:

-ذات يوم، عليك أن تنتقم.

- أجل، سأنتقمُ. سأطلبُ من طوم ميكس مُسدّسه ومن فريد طومسون حصانه «شعاع القمر» وسأجمّع فرقةً عسكريّةً من هنود «الكومونش»، ذات يوم سأحضرُ شعره وهو طافٍ على طرف خيزرانة.

لكن لاحقًا، تبدّدَ غضبي وتحدّثنا في أمرٍ آخر.

«شُروروكا، أنت لا تعرف. هل تذكر بأنني الأسبوع الماضي تلقيتُ مكافأة كتاب الحكايات ذاك، كتاب *«الزهرة السحرية»*، لأنني تلميذ جيّد؟».

مناداتي له بشروروكا كانت تجعل مينجوينهو سعيدًا جدًّا، فهو يشعرُ في تلك اللّحظات بأنّني أحبّه بصفةٍ خاصّة.

-نعم، أتذكر.

-لم أخبرك بأنني قد قرأت الكتاب بالفعل. إنها حكاية أميرٍ تلقّى من جنيّة زهرةً حمراء وبيضاء. ذاك المحظوظ كان يمتطي حصانًا مُسرجًا بالذهب، هكذا يقولون في الكتاب. وعلى حصانه المُسرّج بالذهب، كان يُسافر بحثًا عن المغامرات. وعند أوّل خطرٍ كان يُحرّك الزهرة السّحرية فيظهر دخانٌ رهيبٌ كي يتمكّن الأمير من الفرار. وإحقاقًا للحقّ، مينجوينهو، لقد وجدتُ هذه الحكاية غبيّة، أتعرف؟ هذه ليست مثل المغامرات التي أريد أن أخوضها في الحياة. مغامرات حقيقية شبيهة بمغامرات طوم ميكس، وبِيك جُونز... وتلك الخاصّة بفريد طومسون وريتشارد تالمادج. إنهم يقاتلون مثل مجانين. هناك طلقات مسدس، لكمات... لو كان لديهم زهرة سحريّة في كل مرّة يحصل خطر لن يكون لهذا أي فائدة. ما الذي تراه أنت؟

- أرى أيضًا بأن هذا سيكون مملاً بما فيه الكفاية.

- لكنني لا أسألك عن هذا. أريد أن أعرف ما إذا كنتَ تعتقد فعلاً بأنّ زهرةً يمكنها القيام بأشياء سحريّة؟

- في الواقع، هذا غريب نوعًا مّا.

- يروي الناس حكايات ويظنون بأن الأطفال يصدقون أي شيء.

- بالضبط.

سمعنا ضجيجًا، كان لويس يقترب. أصبح أخي الصغير ظريفًا أكثر فأكثر. لم يكن بكّاءً ولا مثيرًا للمشاكل. حتى عندما أكون

مضطرًّا للاعتناء به، كنت أقوم بهذا عن طيب خاطرٍ إلى حدٍّ مّا.

قلتُ لمينجوينهو:

-لنُغيّر الموضوع لأنني أريد أن أحكي له هذه القصّة، سيجدها جميلة جدًّا. لا يجب علينا أن نسلب طفلًا أوهامه.

- زيزا، هل نلعب؟

- لكنني منهمك في اللّعب. ما الذي تريد لعبه؟

- أريد التجول في حديقة الحيوانات.

من دون حماسٍ، نظرتُ إلى القنّ وبداخله الدجاجة السوداء والفرختان.

-لقد تأخّر الوقت. وذهبت الأسُود للنوم ونمور البنغال أيضًا. في هذه الساعة كل شيء مُوصد. وقد كفّوا عن بيع بطاقات الدخول.

- إذن، سنسافر إلى أوروبا.

هذا المُحتال الصّغير يحفظ كلّ ما يسمعه ويكرّره من دون أن يخطئ. لكن في الحقيقة، لم أكن أرغب في السّفر إلى أوروبا. كنتُ أفضّل البقاء بالقرب من مينجوينهو. فهو لا يسخرُ مني، وينسيني رؤية عيني المُتورّمة.

جلستُ بالقرب من أخي الصغير وقلتُ له بكلّ لطف.

«اجلس هنا، سأفكر في لعبة».

ولم نلبث حتّى مرّت جنيّة البراءة وهي تطير فوق سحابة

بيضاء حرّكت أوراق أشجار الجدول والأعشاب الطويلة وأوراق الكسوروركا. أضاءت ابتسامة وجهي المرهق.

-أنت من فعل هذا، مينجوينهو؟

-أنا، كلاّ.

-آه! يا لها من أعجوبة. لقد حلّ موسم الريح.

في شارعنا كانت توجد مواسم لكلّ الأشياء. موسمٌ للكريّات. موسمٌ للخذروف. موسم لجمع صور مشاهير السينما. موسم للطائرات الورقيّة، وهو أجمل الأوقات. ففي كلّ الجهات كانت السماء ممتلئة بالطائرات الورقيّة من كلّ الألوان. طائرات ورقيّة جميلة مختلفة الأشكال. كانت الحرب في السّماء. الرؤوس التي تتصادم، المعارك، الصيد بالمناشيط، طعنات السيوف.

كانت شفرات مُوسى الحلاقة تقطع الخيوط فتسقط طائرة ورقية وهي تدور في الهواء حاملةً ذيلها غير المتوازن مع خيطها، كان كل هذا جميلًا. كان العالم ملكًا لأطفال الشارع. لأطفال كل شوارع «البانغو». ثمّ هاهي جثة عالقة في خيوط الكهرباء، وها أن شاحنة من شركة الكهرباء تأتي سريعًا. يُقبل الرجال ساخطين وينتزعون الطائرات الورقية الميّتة التي تُخرّب الخيوط. الريح... الريح... مع الريح خطرت لي فكرة.

-سنقلّد الصّيادين، لويس؟

-لا أعرف ركوب الخيل.

-ستكبر وستعرف هذا قريبًا. ابقَ جالسًا هنا وانظر كيف

نتصرّف.

فجأةً أصبح مينجوينهو أجمل حصان في العالم، ازدادت الريح وتحوّلت الأعشاب المُدمّرة إلى سهلٍ واسعٍ ووارفٍ. كان زيّ الكوبوي الخاصّ بي مُصمّمًا من الذهب. وعلى صدري التمعت نجمة الشريف.

«إلى الأمام، أيّها الحصان الصغير، إلى الأمام. عَدوٌ سريع، عَدوٌ سريع..».

طق..طق..طق، التقيت من جديد طوم ميكس وفريد طومسون، بِيك جُونز لم يرغب في المجيء هذه المرّة وأمّا ريتشارد تالمادج فيمثّلُ دورًا في فيلم جديد.

«إلى الأمام، إلى الأمام، أيّها الحصان الصغير. عَدوٌ سريع، عدو سريع. ها هم أصدقائي الهنود يصلون مثيرين الغبار».

طق..طق..طق، كان موكب الهنود يُحدث صخبًا مجنونا.

«أسرع، أسرع، أيّها الحصان الصغير. كان السهل مُغطى بالثيران الأمريكية والجواميس. سنطلق السِهام، أيها الأصدقاء. *بلافت، بلافت، بلافت... تيكو، تيكو، تيكو... فُيوم، فُيوم، فُيوم*، كانت السهام تُصفّر..».

الرّيح، العدْوُ، السّباقُ المجنون، سُحبُ الغبار وصوت لويس الذي يكاد يصرخ:

«زيزا! زيزا!..».

أوقفتُ حصاني بلطفٍ وقفزتُ، مُتحمّسًا لبطولاتي.

-ماذا هناك؟ هل أتى جاموس من جهتك؟

-كلاّ. لنلعب لعبة أخرى. يوجدُ الكثير من الهنود، أنا خائف.

-لكنّهم الأباتشي. كلّهم من الأصدقاء.

-لكنّني خائف. يوجد الكثير من الهنود.

2
الغزو

في الأيّام الأولى كنت أغادر مبكّرًا خشية أن أصادف البرتغالي حين يتوقف لشراء سجائره. بالإضافة إلى أنني حرصتُ على السّير في الجهة الأخرى من الشارع وعلى الاختباء في ظلّ الأسيجة المُشكّلة من نبات الفربيون التي تفصل المنازل عن بعضها البعض. فور وصولي إلى شارع ريُو-ساو باولُو كنت أعبر الطريق وأواصل السير، صندلي الخاص بالتنس في يدي، ملتصقًا تقريبًا بجدار المصنع. أصبحت كل هذه الاحتياطات من دون جدوى خلال بضعة أيّام. إنّ ذاكرة الشارع قصيرة. قريبًا لن يتذكّر أحد آخر مأثرة لابن سنيور باولو. لأنهم ينادونني هكذا عند ساعة الاتهام: «إنه ابن سنيُور باولو... إنه الطفل الملعون ابن السنيور باولو... إنه الصغير ذائع الصّيت للسنيور باولو..».

حتى أنهم ذات مرّة، ابتكروا شيئا رهيبا: عندما هُزم نادي بانغو هزيمة نكراء أمام نادي أندارايْ، أطلقوا هذه النكتة: «البانغو ضُرب مثل ابن سنيور باولو..».

أحيانا كنت أرى السيارة اللعينة متوقّفةً في الزاوية فأبطئ كي لا أرى مرور البرتغالي الذي سأقتله عندما أصبح كبيرًا، هذا المتوحّش

بهيئته المتعجرفة الجالس خلف مقود أجمل سيارة في العالم وفي بانغو.

وعندما اختفى لبضعة أيام، يا للراحة! لا شكّ أنّه غادر بعيدًا جدًّا، لقضاء عطلة ربما. استأنفتُ السير بقلب أكثر خفة في طريق المدرسة حتى أنني بدأت أتساءل ما إذا كان أمرًا جديرًا بالعناء، قتل هذا الرجل لاحقًا. لكن كان هناك أمر أكيد: في كل مرة كنت أملك فيها فرصة الصعود على سيارة أقلّ إثارة للإعجاب، لم أكن أجد نفس الحماس وتبدأ أذناي في الالتهاب.

كانت أحداث الحياة اليوميّة للنّاس والشارع تسير بطريقة طبيعيّة. جاء موسم الطائرات الورقيّة والألعاب الجامحة في الشارع. كانت السماء الزرقاء مُثقلة بنجوم رائعة من كل الألوان. عندما حلّ موسم الريح، كنتُ أهمل مينجوينهو قليلاً، لم أكن ألتقيه إلاّ إذا كنت أقضي فترة عقاب بعد تلقيّ ضربة مؤلمة على مؤخرتي. لم أكن أحاول الهروب حتّى، لأنه من المؤلم جدًّا تلقّي ضربتين متتاليتين على المؤخرة. في تلك الحالات كنت أصطحب الملك لويس يُزيّن –هذه الكلمة تعجبني– جذع شجرة برتقالي الحلو. يتوجب القول إنّ مينجوينهو قد نما إلى حد كبير وقريبًا، سيمنحني زهورًا وثمارًا. أمّا بقية أشجار البرتقال فقد كانت متأخرة. جذع شجرة برتقالي الحلو، نضج قبل الأوان، مثلما قال عني العمّ إدموندو. في ما بعد، شرح لي ما الذي يعنيه هذا: أشياء تقع قبل غيرها. فعليًّا، أظنّ بأنّ العم إدموندو لم يعرف كيف يشرح لي كما يجب. كان هذا يعني بكل بساطة: كل ما يحدث قبل الأوان.

كنت آخذ أطراف حبال وقطعًا من الأسلاك، وأثقب عددًا من سدّادات القوارير وأذهب لأزيّن مينجوينهو. كان جديرًا به أن يُرى جميلًا! عندما تهبُّ الريح، كانت السدّادات تتصادم في ما بينها، بدا وكأن لديه مهمازيْ الفضة اللذين يعودان لفريد طومسون عندما يكون على حصانه «شعاع القمر»... فضاء المدرسة العمومية كان رائعا أيضا. كنت أعرف عن ظهر قلب كل الأناشيد الوطنية. النشيد العظيم الأصلي، وبقيّة أناشيد العالم الأخرى والنشيد الوطني للحريّة، «أيتها الحرية، افردي جناحيك فوقنا». كان هذا النشيد هو الذي أحبّه أكثر وأظن أن فريد طومسون كان يحبّه أيضًا. عندما امتطينا الحصان، دون أن نصطاد أو نقوم بالحرب، سألني باحترام:

«هيّا، أيها المحارب «بيناجيه»، غنِّ نشيد الحريّة».

كان صوته العذب يملأ السهل الواسع، كان هذا أجمل ممّا كنت أغنّيه مع سنيور أريوُوفالدُو، يوم الثلاثاء، عندما كنتُ أقدّم له يد المساعدة.

كنتُ أتغيّب كلّ ثلاثاء عن المدرسة من دون إذن مثل العادة كي أنتظر القطار الذي يحمل صديقي أريوُوفالدُو. كنت أراه ينزل الدرج حاملا في يده الأوراق التي سنبيعها في الشارع. بالإضافة إلى هذا كان لديه جرابان ممتلئان، إنّه الاحتياطي. وكان يبيع تقريبًا كل شيء، ما يبعث الفرح في كلينا...

في وقت الاستراحة، عندما يكون لدينا وقت، كنا نلعب بالكريّات. كنتُ معروفًا كبطل. كنت أصوّبُ بكلّ ثقة، كان من

النادر ألاّ أعود إلى المنزل بثلاثة أضعاف الكريّات الموجودة في جرابي.

كان هناك أمر يثير الشفقة، إنّها مُعلّمتي، دُونا سيسيليا بايْم. من الممكن أن يبلغوها بأنني أكثر الأطفال شيطنةً في الشارع، لم تصدّق هذا، ولا كانت تصدّق بأنه يمكنني قول كلماتٍ بذيئة مثل أي شخصٍ. ولم تكن تصدّق بأنه لا مثيل لي في القيام بالحماقات. لم تكن تصدّق هذا مطلقًا. في المدرسة، كنتُ ملاكًا. لم أكن أتلقّى لومًا على الإطلاق وكنتُ الطفل المُدلّل للأساتذة لأنني أحدُ الأطفال الأصغر سِنًّا الذين رأوهم حتى ذلك الوقت. كانت دُونا سيسيليا بايم تعرف فقرنا وفي وقت اللمجة، عندما ترى بأن الجميع يأكلون، كانت تشفق عليّ، فتناديني على حدة وترسلني لشراء كعكتي المحشوّة من محل الكعك. كانت تغدق عليّ الكثير من الحنان، حتى اعتقدت بأنني أصبحت ولدًا عاقلًا فقط كي لا أخيّب ظنّها.

عندئذٍ وقع الأمر. كنت أسير ببطء، كما هو الحال دائمًا، في شارع ريُو-ساو باولو، عندما مرّت سيارة البرتغالي الكبيرة على مهل بالقرب مني. أطلق المنبّه ثلاث مرّات ورأيتُ الوحش ينظرُ إلي مبتسمًا. ما ولّدَ من جديدٍ كرهي له والرغبة في قتله عندما أصبح كبيرًا. استجمعتُ كل كبريائي وواصلت سيري وكلّي ثقة متظاهرًا بتجاهله.

-الأمر مثلما أخبرك به، مينجوينهو. يتكرّر الشيء نفسه كلّ يوم. وكأنّه ينتظر أن أمرّ كي يبدأ في إطلاق المنبّه. يزمّر ثلاث مرّات. بل لوّح لي بيده يوم أمس.

-وأنت؟

-أنا، لا أجفل وأتظاهر بعدم رؤيته. بدأ يخاف منّي، سيصبح عمري ستّ سنوات وقريبًا سأصبح رجلًا.

- هل تعتقد بأنه يريد أن يصبح صديقك لأنه خائف؟

- لا شكّ في هذا. انتظرني، سأحضر الصندوق.

كان مينجوينهو قد نما بصفة مقبولة. وللصعود فوق سرجه كان عليّ الاستعانة بصندوقٍ.

«حسنًا، الآن بوسعنا أن نثرثر».

كنتُ أشعر وأنا جاثمٌ فوق صندوقي بأنني أكبر من العالم. كنت أسيطرُ على المشهد، حُزمُ الأعشاب في الجدول، الحسّاسين وعصافير القرقف التي تأتي لنقر الطعام ها هنا. في المساء، ما أن يسود الظلام قليلًا، حتّى يأتي لوسيانُو آخر ليحوم بفرحٍ فوق رأسي، مثل طائرةٍ من «كامبوُ دُوس أفونسُوس». في البداية، كان مينجوينهو نفسه يندهش لعدم خوفي من الخفّاش، على عكس كلّ الأطفال. وعلاوة على ذلك، تغيّب لوسيانُو عدّة أيّامٍ إذ يبدو أنّه عثر على «كامبوُ دُوس أفونسُوس» آخر.

«هل رأيت، مينجوينهو، بدأت أشجار الجوافة نيجا يوجينيا بالاصفرار. قريبا ستكون ثمار الجوافة ناضجةً. المزعج، لو أمسك بي، مينجوينهو... سبق وأن تلقيتُ اليوم ثلاث ضربات على مؤخرتي. أنا هنا لأنهم عاقبوني».

لكن الشيطان ساعدني على النزول ودفعني نحو السياج المُشكّل من نبات الفربيون. حمل نسيم ما بعد الظهر إلى أنفي رائحة الجوّافة

أو ربما كنت أتخيل هذا... ألقيتُ نظرة عن يميني، أزحتُ غصنًا من جهة الشمال وهمس لي الشيطان:

«هيّا، أيها الأحمق، أنت ترى جيّدا بأنه لا يوجد أحد. في هذه السّاعة يجب أن تكون قد ذهبت إلى محل اليابانيّة. سنيور بينيديتو؟ ما من خطر. إنه نصف أصمّ وأعمى. إنه لا يرى شيئا. ستجد الوقت الكافي كي تهرب إذا ما انتبه إليك..».

تابعتُ سيري بمحاذاة السّياج حتى الجدول وحسمتُ أمري. قبلها، كنت أشرت على مينجوينهو بأن لا يثير ضجّة. كانت دقّات قلبي تتسارع. نيجا يوجينيا لا تمزح. وكانت واحدة من صاحبات أسوأ الألسن!... تقدّمت على أطراف قدميّ، من دون أن أتنفس، عندما سمعته يصرخ من نافذة المطبخ:

«ماذا هناك، أيها الصبيّ؟».

لم يسعفني الوقت لأخترع كذبةً كأن أدّعي بأنني جئتُ للبحث عن كرةٍ. أسرعت بالهرب وقفزت فوق الجدول. لكن هناك كان شيء آخر بانتظاري. ألم قويّ -جدًّا حتى كدت أصرخ، لكنني إذا ما صرختُ فسأضرب مرتين: بداية لأنني لم أمكث لقضاء عقوبتي، ولأنني كنت سأسرق جوّافة الجيران ونجحتُ في أن أغرس قطعة زجاجٍ في قدمي اليُسرى.

حاولتُ وأنا أتضوّر ألمًا انتزاع شظيّة الزجاجة. تأوّهتُ بصوتٍ منخفضٍ ورأيتُ دمي يمتزجُ بماء الجدول المُتّسخ. والآن؟ نجحتُ في انتزاع الشظيّة، بعينين دامعتين، لكنني لم أكن أعرف كيف أوقف

نزيف الدم. ضغطتُ بقوّة على كاحلي لأخفّف من الألم. عليّ أن أتماسك. سيحلُّ اللّيل قريبًا ومعه سيأتي أبي وأمي ولالا. لو أمسكني أحدهم، سيضربني. بل قد يضربونني جميعًا، تباعًا. صعدتُ المنحدر مترنّحًا وأنا أقفز على قدمٍ واحدةٍ كي أذهب وأجلس تحت شجرة برتقالي الصغيرة. كانت الإصابة لا تزال تشعرني بالألم لكن رغبتي في التقيؤ قد مرّت.

«انظر، مينجوينهو».

ارتعبَ مينجوينهو. كان مثلي، لا يحبُّ رؤية الدم.

«ما العمل، يا إلهي؟».

سيساعدني توتوكا، لكن أين يمكن أن يكون في هذه السّاعة؟ هناك أيضًا جلوريا، جلوريا لا شك أنّها في المطبخ. هي الوحيدة التي تأبى ضربي بذلك الشكل. ربّما ستشدني من أذنيّ أو ربّما تفرض عليّ قضاء عقوبةٍ جديدةٍ. لكن كان لا بدّ من المحاولة.

جررتُ نفسي حتى باب المطبخ، مفكّرًا في طريقة تجعل جلوريا تفقدُ أسلحتها. كانت تقوم بالتطريز. جلستُ بطريقة مثيرة للشفقة وهذه المرة كان الله من ساعدني. نظرت إليّ ولاحَظت أنّني أطأطئ رأسي. قرّرَت بأن لا تقول شيئًا لأنّني معاقبٌ. كانت عيناي ممتلئتين بالدّموع وكنتُ أنخر بأنفي. سمّرت جلوريا عينيها فيّ. تجمّدت يداها فوق قطعة القماش.

«ماذا هناك، زيزا؟».

– لا شيء، جُودويا... لماذا لا أحد يحبّني؟

- أنت أحمق.

- اليوم تلقّيت ثلاث ضربات على مؤخرتي، جُودويا.

-ألم تكن تستحقّها؟

-ليس هذا. بما أن لا أحد يحبني، فيستغلون هذا الأمر لضربي لأيّ سبب كان.

بدأ قلب جلوريا البالغة من العمر خمس عشرة سنة يلين. وكنتُ أشعر بهذا.

«أعتقد من الأفضل أن أترك نفسي لتسحقني سيّارة على طريق ريُو-ساو باولو، غدا».

وبدأت الدموع تنساب مدرارًا من عينيّ.

-لا تقل حماقات، زيزا. أنا أحبّك كثيرا.

- لا، أنتِ لا تحبّينني. لو كنت تحبّينني، لما سمحت بأن أضرب اليوم.

- لقد حلّ اللّيل تقريبًا، لن تجد الوقت للقيام بحماقاتٍ أخرى.

- لكن سبق وأن ارتكبت مثل هذه الحماقات...

تركت قطعة القماش واقتربت منّي. كادت تصرخ وهي ترى بركة الدم التي تحيط بقدمي.

«يا إلهي «جُومْ»! ما هذا؟».

لقد ربحتُ المعركة. ما دام قد نادتني بـ «جُومْ»، فقد نجوتُ.

أخذتني بين ذراعيها وأجلستني على مقعد. ذهبت على جناح

السّرعة لإحضار إناء من الماء المالح وركعت عند قدميّ.

-سيؤلمك هذا كثيرًا، زيزا.

- يؤلمني كثيرًا منذ الآن.

- يا إلهي، لقد جرحت نفسك جرحًا عمقه ثلاثة أصابع تقريبا كيف فعلت هذا، زيزا؟

- لا تخبري أحدًا بهذا، من فضلك، جودويا. أعدك بأنني سأكون ولدا عاقلاً. لا تسمحي لأحدٍ بأن يضربني بكلّ تلك القسوة...

- حسنًا، لن أقول شيئًا. لكن ما عسانا نفعل؟ كل النّاس سيرون قدمَك المُضمَّدة. وغدًا لن تستطيع الذهاب إلى المدرسة. سيكتشفون الأمر في نهاية المطاف.

- بلى، سأذهب إلى المدرسة. سأنتعل صندلي حتى الكعب. لاحقًا سيكون الأمر سهلًا.

- يجب أن تنام وتحافظ على قدمك ممدودةً، وإلاّ فإنّك لن تستطيع المشي غدًا.

ساعدتني على الوصول إلى السّرير وأنا أحْجِلُ على رجلٍ واحدةٍ. «سأجلب لك شيئًا لتأكله قبل أن يصل الآخرون».

عندما عادت مع وجبتي لم أستطع أن أمنع نفسي من منحها قُبلةً. وكان هذا نادرًا عندي.

عندما التأم شمل الجميع من أجل العشاء، تفطّنت أمّي لغيابي.

-أين زيزا؟

-نائم. كان يشكو من ألم في الرّأس.

كنت أستمتعُ بما أسمع. جعلني هذا أنسى وخزات إصابتي. أعجبني أن أكون موضوع الحديث. عندها عَزَمت جلوريا أن تتولّى الدّفاع عنّي. بنبرةٍ فيها من الحزن والاتّهام ما فيها.

-هذا الطفل يتعرّض للضرب باستمرارٍ. اليوم كان محطّمًا تمامًا. ثلاث ضربات على المؤخرة، هذا كثير.

- لكنّه طاعونٌ صغير. لا يجلس هادئًا إلاّ حين نضربه.

- وأنتِ، ربّما ستقولين بأنك لا تضربينه مُطلقًا؟

- أبدًا. أقصى ما أقوم به شدّ أذنيه.

خيّم صمتٌ وواصلت جلوريا الدّفاع عنّي.

«في النهاية، فكّروا، لم يبلغ ستّ سنوات بعد. هو لا يطاق، لكنه مازال صغيرًا جدًّا».

تلك المحادثة جعلتني سعيدًا.

كانت جلوريا قلقةً وهي تجهّزني، وساعدتني في انتعال نعلي.

-هل ستستطيع المشي؟

-أجل، سيكون الأمر على ما يرام.

-لن تقوم بحماقات على طريق ريُو-ساو باولو؟

-كلاّ، لن أقوم بحماقات.

-هل كان صحيحًا ما قلته.

-كلاّ. لأنّني كنتُ تعيسًا جدًّا وأنا أفكّر في أنّ لا أحد يحبّني.

داعبت لُبدة شعري الأشقر وتركتني أمضي.

ظننت بأن الأصعب سيكون الوصول إلى الطريق الكبير. حين أخلع حذائي سيخفّ الألم. لكن، عندما لمست قدمي الأرض مباشرةً، كان عليّ السير ببطءٍ شديدٍ، مُستندًا على جدار المصنع. بهذه الطريقة لن أَصِلَ أبدًا.

عند ذلك حدث ما لم يكن متوقّعًا. رنّ المنبّه ثلاث مرّات. شقيّ! لا يكفي بأنني كنتُ ميّتًا من الألم، يأتي أيضًا ليتهكّم عليّ... توقّفت السيّارة بالقرب منّي تمامًا. انحنى عبر الباب وسألني:

«أوه! أيّتها الناموسة، هل أصبت في قدمك؟».

أردتُ أن أقول له بأن هذا لا يعني أحدًا. وبما أنّه لم ينادني بشقيّ لم أجب وواصلتُ السّير، مشيتُ حوالي خمسة أمتار. شغّل السيارة من جديدٍ، تجاوزني وتوقّف قبالة الحائط تقريبًا، على حافّة الطريق، قاطعًا أمامي الطريق. ثمّ فتح الباب ونزل بقامته الطويلة.

«هل هذا الجرح يؤلمك كثيرا، ناموسة؟».

لم يكن من المعقول أن يملك شخص كان قد ضربني صوتًا بكلّ هذه العذوبة، صوتًا وديًا تقريبًا. اقترب منّي وعلى عكس ما كنت أتوقّع، جثا بجسده الضخم ونظر إليّ في عينيّ. كانت ابتسامته من الطيبة حتّى خيّل إليّ بأن مودّة تنبعث منها.

«يبدو أنك آذيتَ نفسك، أليس كذلك؟ ما هذا؟».

نخرت بأنفي قليلاً قبل أن أجيب.

-شظيّة زجاج.

-هل الجرح عميق؟.

أوضحتُ له عمق الجرح بأصابعي.

-آه! هذا خطير. ولماذا لم تبقَ في منزلكم؟ يبدو أنّك ذاهب إلى المدرسة، أليس كذلك؟

- في البيت، لا أحد يعلم بأنني آذيتُ نفسي. لو تفطّنوا لتلقّيت منهم المزيد من الضرب حتّى لا أعيد الكرّة مرّة أخرى...

- تعالَ، سأصطحبك.

- لا شكرًا، سيدي.

- لكن لماذا؟

- الجميع في المدرسة يعلمُ ما حصل.

- لكنك لا تستطيع أن تمشي هكذا.

طأطأتُ رأسي مُقرًّا بأن هذا صحيح وقد شعرتُ بأنّ كبريائي تفتّتت.

أمسكني من ذقني ورفع رأسي.

-سننسى هذه القصة. هل سبق وركبت سيارة؟

-أبدًا، سيّدي.

-إذن سأصطحبك.

-لا أستطيع. نحن عدوّان.

-لا عليك. أنا لا أفكّر في الأمر على الإطلاق. إذا كان هذا

يشعرك بالخزي، سأنزلُك قبل الوصول إلى المدرسة. هل أنت موافق؟

كنت متأثّرًا بشدّة فلم أتمكّن من الردّ. أشرتُ برأسي أن نعم. رفعني، فتح الباب، ووضعني بلطفٍ على المقعد. لفّ حول السيارة وجلس في مكانه. قبل أن يُشغل المحرك ابتسم لي مجدّدًا.

«هل ترى؟ هكذا أحسن».

كان من الرّائع الشعور بالسيّارة التي انسابت بلطف، مع تمايلات خفيفة، أغمضتُ عينيّ وبدأت أحلم. كان هذا أكثر نعومةً وروعةً من الرّكوب على «شعاع القمر»، حصان فريد طومسون. لكنّه لم يستمرّ طويلاً، عندما فتحتُ عيني كنّا قد اقتربنا من المدرسة. رأيت جموع التلاميذ يدخلون من الباب الرئيس. مرتعبًا، انزلقت من المقعد واختبأت. وقلتُ بعصبيّةٍ:

-لقد وعدتموني بالتوقّف قبل الوصول إلى المدرسة.

-لقد غيّرتُ رأيي. هذه القَدَم لا يمكن أن تظلّ هكذا. أنت معرض لخطر الإصابة بالكزاز.

لم أسأله عن معنى هذه الكلمة المعقّدة والمضحكة. وكنت أعرفُ أيضًا أنّه من العبث القول إنني لم أكن أرغب في الذهاب. سلكَت السيّارة طريق «المنازل المنخفضة» وعدتُ للجلوس على مقعدي.

«لديك هيئة رجلٍ صغير شجاعٍ. سنرى الآن كيف ستثبتُ هذا».

توقّف أمام صيدليّة ونقلني على الفور بين ذراعيه. عندما

استقبلنا الدكتور أدُوكتو لُوز، أصابني ذعرٌ شديد. كان طبيب العمّال في المصنع. وتضاعف رُعبي حين نظر إليّ وسألني فجأةً:

«أنت ابن باولو فاسكونسيلوس، أليس كذلك؟ هل وجد عملًا؟».

كان عليّ أن أجيبَ، رغم شعوري بالعار: سيعرف البرتغالي بأن أبي كان من دون عملٍ.

-إنه ينتظرُ. وعدوهُ بالكثير من الأشياء...

-هيّا لنر ما الأمر.

فكّ الضّمادة الملتصقة بأن شقّها وأطلق صوت همهمة كنذير شؤمٍ. وبدأتُ في العبوس بوجهٍ دامعٍ. لكنّ البرتغالي هبّ لنجدتي.

وضعاني على طاولةٍ مغطّاة بأغطية بيضاء. وظهرت العديد من الأدوات الحديدية. كنت أرتعش. وعندما أسند البرتغالي ظهري على صدره وهو يمسك بكتفيّ بقوّة كبيرة لكن بلطفٍ، توقّفت عن الارتعاش.

«هذا لن يؤلم كثيرًا. عندما سينتهي الأمر سآخذك لتناول الليموناضة والكعك. إذا لم تبكِ، سأشتري لك حلوى مع صور بعض المشاهير».

عندئذ استحضرت كلّ ما أملك من شجاعة. انسابت دموعي، لكنني سمحت بأن يقوما بكلّ شيء. تم تقطيب جرحي وتلقيت أيضا حُقنة مضادّة للكزاز. حتى أنّني تغلبت على رغبتي في التقيؤ. كان البرتغالي يضمّني بقوّة وكأنه يريد أن يشاطرني ألمي. بمنديله

مسح شعري ووجهي المبتلين بالعرق. كان يبدو وكأن الأمر لن ينتهي أبدا. في النهاية انتهى الأمر بأن انتهى. كان راضيًا عندما أعادني إلى السيارة. والتزم بكل ما وعدني به. إلاّ أنني، لم أرغب في شيء. بدا لي وكأنهم انتزعوا روحي من قدمي...

«الآن، لا تستطيع الذهاب إلى المدرسة، ناموسة».

كنا داخل السيّارة وكنتُ جالسًا بالقرب منه، وكان مرفقانا يتلامسان، كنت أعرقل تقريبًا حركاته.

«سأوصلك قريبًا من منزلكم. ستختلق أيّ شيء. تستطيع أن تقول بأنك أصبت أثناء الاستراحة وبأن المُعلّمة قد أرسلتك إلى الصيدليّة..».

نظرتُ إليه بامتنانٍ.

«أنت رجلٌ صغيرٌ شجاع، ناموسة».

ابتسمتُ له متألّمًا، لكن خلال هذا الألم اكتشفتُ أمرًا مهمًّا جدًّا. لقد تحوّل البرتغالي إلى الإنسان الذي أحبّه أكثر من أيّ شخصٍ آخر في العالم.

3

ثرثرات عشوائية

«أتدري، مينجوينهو، لقد اكتشفتُ كل شيء، كلّ شيء. إنّه يسكنُ في نهاية شارع بارون دي كابانيما. في آخره بالضبط. ويركنُ سيّارته بجانب منزله. لديه قفصان، واحد يوجد به كناري والآخر به طائر هزار أزرق العنق. ذهبت هناك في وقت مبكّر جدًّا، دون أن يبدو عليّ ما يشي بقصدي، حاملاً معي صندوقي الخاصّ بتلميع الأحذية. ولفرط ما كنتُ أرغب في الذهاب إلى هناك، مينجوينهو، لم أشعر بثِقل صندوقي، هذه المرّة. وعندها، تأملتُ جيّدًا البيت، وجدته كبيرًا جدًّا بالنسبة إلى شخص يعيش فيه وحده. كان في الخلف، قريبًا من المغسلة، يحلق ذقنه».

صفّقت بيدي.

«ماسح أحذية! ماسح أحذية..».

اقترب، وقد غطّى الصابون وجهه. كان قد حلق نصف وجهه. ابتسم لي قائلا:

«آه! هذا أنت؟ ادخل، ناموسة».

تبعتُه.

«انتظر، انتهيتُ تقريبًا».

كانت آلة الحلاقة تُصدرُ صوتًا لطيفًا فوق لحيته. وفكرتُ في أنّني حين أصبحُ كبيرًا، حين أصبحُ رجلًا، سأحظى بلحيةٍ تصدر نفس الصوت... كان هذا جميلًا.

جلستُ فوق صندوقي وانتظرتُ. نظر إلي في المرآة.

-والمدرسة؟

-إنّ اليوم هو العيد الوطني. ولهذا السّبب خرجت لتلميع الأحذية. كي أجمع بضعة بنسات.

-آه!

واستمرّ. بعدَها، انحنى فوق المغسلة وغسل وجهه. جفّفه بالمنشفة. ثمّ انخرط في الضحك فبدا وجهه أحمر تمامًا ولامعًا.

«هل تريد أن تتناول القهوة معي؟».

قلتُ لا بينما كنت أودّ أن أقول نعم.

«ادخل».

كنت أتمنّى لو ترى كم كان كلّ شيءٍ نظيفًا ومُرتبًا. حتّى أنه يوجدُ مفرشٌ بمربّعات حمراء فوق الطاولة. وفناجين أيضًا، ليس مثل أكواب التنك التي لدينا في البيت. شرح لي بأنّ امرأة عجوزًا تأتي يوميًا لترتيب البيت عندما يذهب هو إلى العمل.

«إذا شئت، اصنع مثلي، غمّس خبزك في قهوتك. لكن لا تصدر صوتًا وأنت تشرب. هذا بشع».

عندها، نظرتُ إلى مينجوينهو، كان صامتًا مثل دمية من القماش.

-ما بك؟

-لا شيء، أصغي إليك.

-هل رأيت، مينجوينهو، أنا لا أحبّ الخصومات، لكن إن كنت غاضبًا، من الأفضل أن تخبرني بهذا فورا.

-الأمر هو أنك لا تهتمّ إلاّ بالبرتغالي وهذا لا يروق لي.

ظللت ساهمًا. ومع ذلك كان هذا صحيحًا. لم أفكّر في أنّ هذا قد لا يروقه.

«خلال يومين، سنلتقي من جديد باك جونز. أرسلتُ إليه رسالة مع زعيم القبيلة المُسالم «طورو». كان باك جونز قد ذهب بعيدًا جدًّا، للصيد في سفاناه[1]... مينجوينهو، هل نقول سافاه أم سافاناه؟ في الفيلم هناك «ه» في النهاية. لم أعد أعرف. عندما سأذهب في زيارة لديندينيا سأسأل العم إدموندو عن هذا».

صمت جديد.

-أين كنتُ؟

-كنتَ تغمّسُ قهوتك في خبزك.

-لا تقل غمّست قهوتي في خبزي، أيّها الأبله.

إذن كنت هنا من دون أن أنبس ببنت شفة وهو ينظر إليّ بثبات.

-اكتشفت أخيرًا مكان سكناي.

(1) يقصد السافانا لكنه لا يعرف الكلمة على وجه التدقيق.

كنت مُحرجا. فقرّرتُ أن أقول له الحقيقة:

-هل ستغضبون إن قلت لكم كلّ شيء؟

-كلاّ. بين الأصدقاء لا يجب أن توجد أسرار.

-لم آت إلى هنا لتلميع الأحذية.

-كنت أعرفُ هذا.

-لكنني كنت أرغب في ذلك حقًّا... في هذه الجهة، لا أحد يقوم بتلميع حذائه، يوجد الكثير من الغبار. فقط أولئك الذين يعيشون قريبًا من شارع ريُو-ساو باولو يلمّعون أحذيتهم.

-لكن كان بإمكانك القدوم من دون حمل كلّ هذا، أليس كذلك؟

- إذا لم أحمل صندوقي، لن يسمحوا لي بالمغادرة. يتوجّب علي البقاء قرب المنزل والعودة من وقت إلى آخر، هل تفهمون؟ عندما أريد الذهاب بعيدًا، يجب عليّ التظاهر بالذهاب للعمل.

أضحكه منطقي في التفكير.

-عندما أذهب للعمل، يعرفون في المنزل بأنني لا أرتكبُ حماقات. وهذا أحسن، وبذلك لن يشبعوني ضربًا.

- لا أصدّق بأنّك فظيعٌ بالقَدْر الذي تقوله.

أصبحتُ جدّيًا أكثر.

«أنا لا أساوي شيئًا. أنا شرّير جدًّا. لذلك فإن يوم عيد الميلاد هو يوم مولد الشيطان بالنسبة إليّ، وبالتالي لا أحصل على أيّ شيء.

أنا طاعون. طاعون صغير. شيطان. لا شيء على الإطلاق. إحدى أخواتي قالت بأن ولدًا شرّيرًا مثلي كان يجب ألاّ يرى النّور».

حكّ رأسه من الدهشة.

«في هذا الأسبوع فقط سبق وأن تلقيتُ ثلاث ضربات على مؤخرتي. وكانت من الضربات القوية. حتى أنني أتلّقى ضربات على ما لم أقم به. إنه دائما خطئي. لقد تعوّدوا على ضربي».

-لكن ما هي الأفعال السيئة إلى هذه الدرجة التي تقوم بها؟

-لا شكّ أنّه الشيطان. تأتيني رغبة في القيام بأشياء و... أقوم بها... هذا الأسبوع أضرمتُ نارًا في سياج يوجينيا أوجينيا. ناديتُ دونا كورديليا، بالبطّة العرجاء، وتملّكها غضب شديد! ... وركلتُ كرة من القماش فدخلت اللّعينة من نافذة دونا نارسيسا وكسّرت مرآتها الكبيرة. هشّمت ثلاث لمبات بمقلاعي. ورميتُ حجرًا على رأس ابن سنيور أبيل.

-يكفي، يكفي.

وضع يده أمام فمه كي يخفي ابتسامة.

-لم ينته الأمر. اقتلعتُ كلّ الشتلات التي غرستها دونا إيزابيل. وأغريتُ قطّ دونا روزينا بابتلاع كجّة.

-إلاّ هذه، لا. لا أحبّ إساءة معاملة الحيوانات.

-لكنها لم تكن كبيرةً. كانت صغيرةً جدًّا. أعطوا القطة مُسّهِلا وخرجت الكجّة. لكنّهم بدَلَ أن يعيدوا إلي الكجّة وجّهوا إليّ ضربةً فظيعةً على المؤخرة. الأسوأ، كان أثناء نومي عندما

تناول أبي شبشبه وضربني. لم أكن أعرف لماذا...

-ولم كان هذا؟

-ذهبنا لمشاهدة أحد الأفلام، كنّا مجموعةً كاملةً من الأطفال. اقتنينا تذاكر في الشرفة حيث السّعر أقلّ. حسنًا، شعرتُ بحاجة، هل تفهمون؟... وقفتُ عند زاوية الحائط وفعلتها. كان هناك بركة صغيرة على الأرض. كان من الغباء الخروج وتفويت مقطع من الفيلم. وأعتقد أنكم تعرفون طبيعة الأطفال. يكفي أن يقوم أحدهم بهذا كي يحذو البقيّة حذوه. الجميع ذهبوا إلى الركن ليتحوّل إلى نهر حقيقي. وأخيرًا انتبهوا للأمر وتستطيعون تخيّل البقية: «إنه ابن سنيور باولو». منعوني لمدّة سنة من دخول سينما بانغو. إلى أن أصبح عاقلًا. في المساء، حدّث المالك أبي بالمسألة ولم يضحكه الأمر على الإطلاق... أؤكد لكم هذا».

رغم جهودي ظلّ مينجوينهو عابسًا.

«اسمع، مينجوينهو، لا تتخذ هذه الهيئة. هو، إنه صديقي المفضل. لكن أنت، أنت الملك المطلق بين الأشجار، مثلما لويس هو الملك المطلق بين إخوتي. يجب أن تعلم بأن قلب الإنسان يجب أن يكون كبيرًا جدًّا لاحتواء كلّ من نحبّ».

صمت.

«هل تعرف شيئًا، مينجوينهو؟ سأذهب للعب بالكريّات. أنتَ بغيضٌ جدًّا».

في البداية، كان الأمرُ سرًّا لأنني كنت أخجل أن يشاهدوني في سيّارة الرجل الذي ضربني على مؤخرتي. في ما بعد، استمرّ الأمر هكذا، فمن المريح أن تمتلك سرًّا. والبرتغالي لبّى كل رغباتي في هذا المجال. أقسمنا -بالموت- بأن لا يعرف أحدٌ صداقتنا. أوّلًا، لأنه لم يكن يريد نقل كلّ الأطفال. وعندما يمرُّ أشخاصٌ أعرفهم، أو حتى توتوكا، كنت أنحني. ثانيًا، يجب أن لا يضايقنا أحد ونحن نتبادل الحكايات.

-ألم تروا والدتي مُطلقا؟ إنها هندية. إنها ابنة هنود حقيقيين. في البيت كلّنا أنصاف هنود.

-كيف فعلتَ لتحصل على بشرة فاتحة إلى هذه الدرجة. وشعر أشقر، يكاد يكون أبيض؟

-هذا الجانب البرتغالي. إذن أمّي هندية. سمراء جدًّا بشعر ناعم. أنا وجلوريا فقط من يشبه القطط الصّفراء. تعملُ أمّي في «المطحنة الإنكليزية» كي تساعد في مصاريف البيت. مؤخّرًا رفعت أمّي صندوقًا مملوءا بالبكارات وشعُرَت بألمٍ رهيب فكان عليها زيارة الطبيب. أعطاها الطبيب حزامًا لأنها تسبّبت لنفسها في تمزّق. هل تعلمون، أمي طيّبة معي كثيرًا. عندما تريد ضربي، تستخدم الأغصان النّاعمة الموجودة في الحديقة ولا تضربني إلاّ على ساقيَّ. إنّ حياتها مُتعبة جدًّا حتى أنّها عندما تعود إلى البيت في المساء، لا تمتلك القدرة على الكلام إطلاقًا.

كانت السيّارة تسير وأنا أثرثرُ.

«أختي الكبرى، فتاة طريفة. لها عُشّاق كُثر. عندما ترسلها أمي

لتتنزّه معنا، توصينا بعدم الذهاب إلى أعلى الطريق لأنها تعلمُ بأن عاشقًا ينتظرها عند الزاوية. وتنتقل إلى الطرف الآخر حيث ينتظرها أيضًا عاشق آخر. لا نستطيع الاحتفاظ بقلم لأنها تقضي وقتها في كتابة رسائل لعشّاقها...

- ها قد وصلنا..

كنا قريبين من السّوق فتوقّف عند المكان المتفّق عليه.

«إلى الغد، ناموسة».

كان يعلمُ بأنني سأتدبّر أمري وأقوم بزيارة خاطفة لمكان توقّفه المعتاد، فأشرب كوبًا من الليموناضة وأتسلّم صُوَرًا. بل إنني أعرف ساعات سفراته أيضًا.

هذه اللّعبة مستمرّة منذ أكثر من شهر. أكثر بكثير. لكن لم يكن ليخطر ببالي أن يتخذ تلك الهيئة التي رأيته عليها، هيئة شخصٍ عظيمٍ شفّه الحزن عندما رويت له قصص عيد الميلاد. اغرورقت عيناه بالدّموع ومرّر يده في شعري ووعدني بألاّ أظل بعد اليوم أبدًا من دون هدية يوم عيد الميلاد.

ثمّ تتالت الأيام، هادئة، ملؤها السّعادة والحبور. في البيت، بدؤوا يلاحظون تحوّلي. لم أعد أقوم بالحماقات بنفس القدر، كنت أقضي وقتي في منطقتي، في الجزء الخلفيّ من الحديقة. في الحقيقة، كان الشيطان هو الدافع أحيانًا لقراراتي الجيّدة. لكنني لم أعد أتفوّه بكلماتٍ بذئية كما كنت أفعل في السّابق وتركت الجيران بسلام.

كان البرتغاليّ كلّما سنحت الفرصة، يبتكرُ نزهة. وخلال إحدى

هذه النُزهات أوقف السيارة وابتسم لي.

-أتحبّ حقًّا التجوّل في سيّارتنا؟

-إنّها لي أيضًا؟

-كلّ ما هو لي هو لكَ. كما يحدث بين صديقين كبيرين.

كنتُ أهذي من الفرح. آه! لو أستطيع أن أعلم كل النّاس بأنني نصف مالك لأجمل سيّارة في العالم.

-هل تظن أنّنا الآن صديقان بكل معنى الكلمة؟

-أجل.

-إذن، هل أستطيع أن أطلب منك أمرًا؟

-بكل تأكيد، سيدي.

-كنتُ أتساءل ما إذا كنت ترغب حتّى الآن في أن تكبر بسرعةٍ كي تقتلني؟

-لا. لن أفعل هذا أبدًا.

-لكنّك قلتَ هذا، أليس كذلك؟

-قلتُ هذا عندما كنتُ في حالة غضبٍ. لن أقتل أحدًا على الإطلاق، فحتى عندما يذبحون دجاجة في البيت، فإنني لا أجرؤ على رؤية ذلك. ثمّ إنني اكتشفتُ بأنكم أبعد ما تكونون عمّا يُقال عنكم. ولستم من الـ anthropophages[1]، ولا شيء

(1) فضلنا الاحتفاظ بالكلمة بالفرنسية لتبيين صعوبة نقطها وطولها بالنسبة إلى طفل صغير وهي تعني فئة من الهنود من آكلي لحوم البشر.

من هذا القبيل...

كاد يقفز.

-ماذا قلتَ؟

-anthropophage

- وهل تعرف معناها؟

-أجل، أعرف. العم إدموندو علّمني هذه الكلمة. إنه عالم. اقترح عليه سيّد من المدينة أن يقوم بتأليف قاموس. حتى الآن، لا يوجد سوى كلمة واحدة «carborundum» لم يتمكن من شرحها لي.

-أنتَ تغيّر الموضوع. أريد أن تشرح لي بالضبط ما الذي تعنيه anthropophage.

-إنّهم الهنود الذين كانوا يأكلون لحم البشر. في تاريخ البرازيل توجد صورة نراهم فيها يقطعون برتغاليين إلى قطع ليأكلوها. كانوا أيضًا يأكلون المحاربين الآخرين الذين ينتمون إلى قبائل أعدائهم... إنّها مرادف لآكل لحم البشر. لكنّ آكلي لحوم البشر موجودون في إفريقيا وهم يحبّون كثيرا المُبشّرين المُلتحين.

أطلق ضحكةً رائعةً لا يستطيع أيّ برازيلي أن يُطلق مثلها.

«لديك عقلٌ صغيرٌ من الذهب، ناموسة. في بعض الأحيان يرعبني هذا!».

ثم نظر إلي وقد اتّخذ هيئةً جديّةً.

-أخبرني، ناموسة. كم عمرك؟

- الصحيح أم المزيّف؟

-الصحيح بكلّ تأكيد. لا أريد أن يكون لديّ صديق كذّاب.

-الصحيح، خمس سنوات. الخطأ، ست. لأنه، خلافًا لذلك، لن أستطيع الذهاب إلى المدرسة.

-لماذا أرسلوك مبكّرًا إلى المدرسة؟

-أنتم تدركون بأن الجميع يريد التخلص مني لبضع ساعات. هل تعلمون ما الذي تعنية كلمة «carborundum» سيدي؟

-أين بحثت عنها؟

أدخلتُ يدي في جيبي وبحثت وسط الحصى اللازم لمقلاعي والصُور وخيط الخذروف والكريّات.

«ها هي».

كنت أمسك في يدي ميدالية برأس هنديّ. هنديّ من أمريكا الشمالية، مع كثير من الرّيش في شعره. وخلفه، كانت الكلمة مكتوبة.

أدار وقلّب الميدالية في راحة يده.

-تخيّل أنني أيضًا، أجهل هذه الكلمة. أين وجدت هذا؟

- إنها جزء من ساعة أبي. كانت معلّقةً برباط جلديٍّ في جيب بنطاله. قال لي إنّها ستكون إرثي. لكنّه باعها لحاجته إلى المال، إنّها ساعة جميلة. أعطاني بقية الإرث... قطعتُ الرباط إذ كانت تنبعث منه رائحة عفنه.

عاود مداعبة شعري.

-أنت طفل صغير مُعقّدٌ جدًّا، لكنني أعترف بأنك تملأ قلب العجوز البرتغاليّ بالفرح. دعنا من هذا. هل نذهب؟

- هذا رائع جدًّا. فقط كلمة صغيرة إضافية. يجب أن أحدثكم عن أمر مهمًّ جدًّا.

-حسنا، تكلّم.

- نحن صديقان جدًّا، جدًّا صديقان، أليس كذلك؟

- بكل تأكيد.

- وأشاركك ملكية السيّارة، أليس كذلك؟

- ستكون كلّها لك في يوم من الأيام.

- الأمر هو..

أُرتجَ عليّ فلم أستطع الكلام.

-هيّا، أنت ترتبك؟ في العادة أنت لا...

-ألن تغضبوا؟

-هذا وعد.

-هناك أمران لا يروقان لي في صداقتنا.

لكنّ الكلام لم يكن يخرج بتلك البساطة التي توقعتها.

-بداية، لو كنّا صديقين عظيمين، فإنّ من الصّعب أن أقول دائمًا سيّدي من هنا وسيّدي من هناك..».

ضحك.

-حسنًا، نادني مثلما تشاء، وخاطبني بضمير المفرد.

-سيكون من الصّعب مخاطبتك بضمير أنتَ. لا أعرف هل سأتمكن من ذلك... وإذا ما رويت محادثاتنا لمينجوينهو، مستعملاً ضمير أنتَ، هل سيكون لهذا تأثير طريف. سأحاول. لستم غاضبين؟

-هيا لماذا أغضب؟ هذا طبيعيّ. لكن من هو هذا المينجوينهو الذي لم أسمعك تتحدث عنه أبدًا؟

-مينجوينهو، إنّه كزوروروكا.

-آه؟ كزوروروكا هو مينجوينهو ومينجوينهو هو كزوروروكا. لم أتقدّم مطلقا.

-إنّ مينجوينهو هو جذع شجرة برتقالي الحلو. عندما أحبّه كثيرًا أناديه كزوروروكا.

-إذن، لديك جذع شجرة برتقال اسمه مينجوينهو؟

-إنه خارق للعادة. يتكلم معي، يتحول إلى حصان، ويصطحبني معه، مع باك جونز، مع طوم ميكس،... مع فريد طومسون... أنتَ («أنتَ» الأولى كان من الصعب نطقها، لكنني كنتُ قد حسمتُ أمري...) هل تحبُّ كين مايناردِ؟

بدرت منه إشارة تشي بجهله بأفلام رُعاة البقر.

-في ذلك اليوم، قدّمني فريد طومسون له. أحببتُ كثيرا القبّعة الكبيرة الجلدية التي يرتديها. لكن يبدو أنه لا يعرف الضحك...

-لنغادر، أصبحت مجنونًا مع هذا العالم الذي يتحرّك في عقلك الصغير. وما هو الأمر الثاني؟

-الأمر الثاني أيضًا أكثر صعوبة. لكن بما أنني خاطبتك بأنتَ ولم تغضب... أنا لا أحب اسمك كثيرًا. لا يعني هذا أنه لا يروقني، ولكن بين الأصدقاء ...

-أيّتها العذراء القدّيسة، يا له من كلام غريب!

-هل تقبل بأن أناديك فالداريس؟

فكّر للحظة وابتسم.

-بالفعل ،لا يبدو هذا مستساغًا.

-ومانويل، لا أحبّه أيضًا. لا تعلم كم أكون حانقًا حين يتحدّث أبي عن برتغاليّ ويقول: «يا مانويل...» نفهم مباشرة بأن هذا اللّقيط لم يحظ مطلقًا بصديق برتغالي...

-ما الذي قلته للتو؟

-بأنّ أبي يُقلّد البرتغاليين؟

-لا، قبلها. شيءٌ قبيح.

-اللّقيط؟ هل هي كلمة قبيحة بنفس مقدار ابن الـ...الأخرى؟

-تقريبًا نفس الشيء.

-حسنًا، لن أقولها بعد الآن...إذن؟

-إنه أنا من يطلب منك. إلى أي نتيجة تريد أن تصل؟ لا تريد مناداتي بفالداريس ولا بمانويل أيضًا على ما يبدو...

-يوجد اسم أجده جميلاً جدًّا.

- ما هو؟

اتخذت الهيئة الأشدّ براءةً في العالم.

«مثلما يناديك السنيور لاديسلُو والآخرون في متجر الحلوى..».

شدّ على قبضته متظاهرًا بالغضب.

«هل تعلم بأنك أكبر وقح عرفته؟ تريد مناداتي بـ «بُورتوجا» portugua، أليس كذلك؟ أسمحُ لك بهذا. الآن، هيّا بنا؟».

شغّل المحرك وسار لبعض الوقت وهو يفكّر. أحنى رأسه عبر النافذة ونظر إلى الطريق. كان خاليًا من المارة.

فتح باب السيارة وأمرني: «انزل».

أطعته ولحقت به إلى مؤخرة السيارة. أراني عجلة الاحتياط.

«الآن، تعلّق بها جيّدًا. لكن انتبه».

مُبتهجا، التصقتُ بالعجلة لأقلّد الخفاش. عاود الصّعود إلى السيارة وقاد ببطء. بعد انقضاء خمس دقائق توقّف واقترب مني.

-أعجبك الأمر؟

-كان هذا حلمًا حقيقيًّا.

-هذا يكفي، الآن. لنرجع. لقد حلّ الظلام.

خيّم الليل وسط هدوء عميق وفي البعيد غنت الزيزان داخل الأدغال لتعلن عن استمرار الصيف. مضت السيّارة بهدوء.

-حسنًا. من الآن فصاعدًا، لن نتحدّث بعد اليوم عن هذه

القصّة. اتفقّنا؟

- اتفقّنا.

- تمنّيتُ لو أراك وأنت تعود إلى منزلكم وتحكي لهم عمّا قمت به خلال كلّ هذا الوقت.

- سبق وأن فكرتُ في هذا. سأقول بأنني كنت أتابع درس الدين. إن اليوم هو الخميس.

- لا نحظى بالكلمة الأخيرة معك. لديك إجابة عن كلّ شيء.

عندئذٍ اقتربت قريبًا جدًّا منه وأسندتُ رأسي على ذراعه.

«بورتوجا Portuga!

- امم...

- أريد أن أبقى دائمًا بالقرب منك، هل تعلم؟

- لماذا؟

- لأنك الإنسان الأكثر طيبةً في العالم. لا أُوبّخُ حين أكون قربك وأشعر بأن شعاعًا من الشمس يغمرُ قلبي بالسعادة».

4

عقابان لا يُنسيان

«تثني هكذا. الآن تقصُّ الورق بسكين، بالضبط في الثَنية».

كان هناك صوت خفيف لنصل السكين يقطع الورق...

«الآن، تُلصق بعناية شديدة تاركًا هذه الحاشية. هكذا».

كنت إلى جانب توتوكا الذي كان يعلّمني كيفيّة صنع كرة من الورق. عندما انتهى من التلصيق، علّق الكرة في حبل الغسيل بواسطة ملقط.

-بعدها، تنتظر إلى أن تجفّ تمامًا كي تقوم بالفتحة. هل فهمت، أيّها الحمار الصغير؟

-فهمتُ.

جلس معي أمام باب المطبخ ونظرنا إلى كرتنا المُلوّنة التي استغرقت وقتًا لتجفّ. توتوكا الذي كان يقوم بدور الأستاذ فسّر لي:

-لا نستطيع صنع كرات على شكل المندرينة إلاّ إذا كان لدينا الكثير من الخبرة، في البداية يجب أن تقوم بذلك على دفعتين، هكذا أسهل.

- توتوكا، إذا ما صنعت كرة، أنا بمفردي، هل تقوم أنت

بالفتحة؟

- هذا يعتمد...

ها هو يبدأ في المساومة طامعًا في كريّاتي أو في مجموعة صور لنجوم السينما التي لا يفهم أحد كيف يزداد عددها بكلّ تلك السّرعة.

-أوه! يا للغرابة عندما تطلب مني، سأتعارك بدلًا منك.

-حسنًا. الكرة الأولى سأصنعها بلا مقابل، لكن إذا لم تنجح، في صنع الكرات الأخرى سنقوم بمقايضة.

- اتفقّنا.

وفي الوقت نفسه كنتُ أقسم بيني وبين نفسي بأنني سأتعلّم جيّدًا كي لا يتمكن من الاستيلاء على كريّاتي.

آه! لم تكن كرتي تخرج من رأسي. لا شكّ أنّها كُرتي. تخيّلوا زهو بورتوجا عندما سأحدّثه عن إنجازي. وإعجاب كزوروروكا عندما يرى عملي يتمايل على طرف أصابعي...

متأثّرا بهذه الفكرة، ملأت جيوبي بالكريّات والصور المُتعدّدة النسخ وخرجت إلى الشارع.

ذهبتُ لبيع الكريات والصور، هذه أحسن صفقة للتمكن من شراء ورقتين من ورق الحرير على الأقل.

«هيا، يا أصدقائي! خمس كريّات مقابل سنتيم. كريّات جديدة كأنها خارجة للتوّ من المتجر».

لا شيء.

«عشر صور مقابل سنيتم. لن تحصلوا عليها في محل دُونا لوتا».

لاشيء. كان كلّ الصغار من دون نقود تمامًا. مضيتُ في طريق «البروجريه» من طرف إلى آخر عارضًا بضاعتي. ذهبتُ، وأنا أركض تقريبًا، إلى شارع بارون دي كابانيما، لكن لا شيء.

وماذا لو ذهبتُ إلى بيت ديندينيا؟ ذهبتُ، لكن هذا لم يثر اهتمام جدّتي.

«لا أريد أن أشتري كريّاتٍ ولا صُورًا. من الأحسن لك الاحتفاظ بها. وإلا، غدًا، ستأتي تطلب مني النقود لشراء أخرى غيرها».

بالتأكيد، ديدينيا، لم يكن لديها نقود.

عدتُ إلى الشارع ونظرتُ إلى ساقيّ. كانتا مغطّاتين بتراب الشارع. نظرتُ إلى الشمس التي آذنت بالمغيب. عندئذٍ حصلت المعجزة.

«زيزا! زيزا!».

أقبل «بيركينهو» راكضًا مثل مجنون.

«أنا أبحث عنك في كل مكان. هل تبيع؟».

قمتُ بهزّ جيوبي فتحرّكت الكريّات.

«لنذهب ونجلس».

جلسنَا على الأرض وفردتُ بضاعتي.

«كم؟

-خمس كريّات مقابل بنس واحد، وثلاث صور مقابل نفس السّعر.

-هذا ثمن باهظ».

كنتُ على وشك أن أغضب. يا للسّارق الملعون! باهظ، إذا كان الجميع يبيع خمس صور وثلاث كريّات مقابل ما أطلبه. تهيأت لإعادة كل شيء إلى جيبي.

«انتظر. أستطيع الاختيار؟

-كم لديك؟

-ثلاثمائة رايس. أستطيع أن أصرف منها مائتين.

-حسنًا، سأعطيك ست كريّات واثنتي عشرة صورة؟».

دخلتُ كالإعصار إلى متجر «بؤس ومجاعة». لم يعد أحد يفكّر في المشهد الشهير. لم يكن يوجد هناك سوى سنيور أورلاندو الذي كان يثرثر بالقرب من طاولة البار. لكن حين يطلق المصنع صفّارته، سيأتي كل العمال لتناول كأس ولا أحد سيستطيع الدخول.

«هل لديكم ورق حرير، سيدي؟

- هل تملك مالًا؟ لن أبيع بعد الآن على حساب أبيك».

لم أشعر بالإهانة. أريته القطعتين في يدي.

«ليس لديّ سوى الورديّ والبرتقالي.

-فقط؟

-خلال موسم الطائرات الورقيّة، سطوتم على كلّ شيء. ولكن ما تأثير ذلك؟ يمكن للطائرات أن تكون مختلفة الألوان، هذا لن يمنعها من الطيران.

-لكنني لا أريد الورق لأجل طائرة ورقية. سأصنع أوّل كرة لي.
وأريد أن تكون أجمل كرة في العالم».

لم يكن لديّ الكثير من الوقت لإضاعته. لو ركضت حتى متجر شيكو فرانكو، فسأخسر الكثير من الوقت.

«حسنا».

الآن، مازال هناك أمرٌ آخر. سحبتُ مقعدًا قرب الطاولة وجعلتُ الملك لويس يتسلّقه كي ينظر.

«هل تعدني بأن تظلّ هادئًا؟ سيقوم زيزا بشيء صعب جدًّا.
عندما تصبح أكبر، سأعلّمك القيام به دون أن تمنحني شيئا».

أرخى الليل سدوله وأنا أعمل. أطلق المصنع صفّارته. كان يجب أن أسرع. كانت جانديرا قد بدأت في وضع الصحون فوق الطاولة. لقد تعوّدت إطعامنا مبكّرًا كي لا نضايق الكبار.

«زيزا!...لويس!..».

كانت تصرخ كما لو أنّنا في مكان قصيّ. أنزلتُ لويس قائلاً له:

-هيا اذهب، سألحق بك.

-زيزا!... تعال حالًا، وإلا سترى.

-ها أنا قادم!

كانت الشيطانة سيّئة المزاج. يبدو أنّها تخاصمت مع أحد عشّاقها. ذاك الذي عند آخر الطريق أم ذاك الذي عند أوّله؟...

جفّ الغراء كما لو كان ذلك بفعل فاعلٍ والتصق الطحين

بأصابعي، ما عقّد عملي.

استأنفت الصُّراخ بشكلٍ أقوى. وانعدم حولي الضوء تقريبا لمواصلة العمل.

«زيزا!..».

ها قد حُسم الأمر. لقد خسرتُ. اقتربت، حانقةً.

«هل تظن بأنني خادمتك؟ تعال لتناول الطعام فورًا».

واندفعت داخل حجرة الجلوس وأمسكتني من أذنيّ. ثمّ سحبتني عبر الغرفة ورمتني قبالة طاولة المطبخ. عندئذ تمرّدتُ.

«لن أتعشّى. لن أتعشّى. لن أتعشّى. أريدُ إنهاء كُرتي».

هربتُ وركضتُ عائدًا إلى عملي.

استبدّت بها حالة من الهيجان. وبدل أن تندفع خلفي، توجّهت إلى الطاولة. وصبّت جام غضبها على حلمي الجميل. أصبحت كرتي غير المكتملة قُصاصاتً من الورق الممزّق. لم تكن مسرورة هكذا (ذهولي كان كبيرًا جدًّا إلى درجة أنني لم أقم بشيء للدفاع عن نفسي)، أمسكتني من ساقيّ وذراعيّ وألقت بي وسط القاعة.

«عندما أتكلّم، فلكي تُطيعني».

تلبّسني الشيطان. وانفجرت ثورتي مثل إعصارٍ. في البداية كانت عاصفةً بسيطةً.

«هل تعلمين من أنتِ؟ أنتِ قـ...!».

ألصقت وجهها قبالة وجهي. وكانت عيناها تقدحان شررًا.

«كرّر هذا، إن كنت تمتلك الشجاعة».

قسّمت المقاطع اللفظية.

«قـ...!».

التقطت الحزام الجلدي من المنضدة وشرعت تضربني من دون شفقة. استدرتُ وخبّأتُ وجهي بيديّ. كان ألمي أقلّ بكثير من غضبي.

«قـ...!قـ...! ابنة قـ...!».

لم تتوقّف، لم يكن جسدي سوى حريق. وعندها دخل أنطونيُو. اندفع لمساعدة أخته التي بدأت تتعب من ضربي بكل تلك القوّة.

«اقتليني أيتها المجرمة! سيثأرُ لي السجن!».

وضربت، ضربت حتّى سقطت على ركبتيّ مُرتميًا على المنضدة.

«قـ...! ابنة قـ...!».

رفعني توتوكا وواجهني.

«اسكت، زيزا، لا يجب أن تشتم أختك هكذا.

- إنها قـ...مجرمة، ابنة قـ...!».

عندئذٍ انطلق يضربني، على وجهي، على عيني، على أنفي، على فمي، وخصوصًا على فمي...

أنا مدينٌ بنجاتي لجلوريا التي سمعت الضوضاء. كانت في الجوار، منهمكةً في الحديث مع دونا روزينا. اندفعت وقد جذبتها الصرخات. دخلت القاعة مثل إعصارٍ. لم تكن جلوريا تمزح وحين رأت الدم يسيل على وجهي، دفعت توتوكا جانبًا، ومن دون أن

تهتمّ بأن جانديرا كانت أكبر منها، أبعدتها بركلة قدم. تمددت على الأرض، عاجزًا تقريبًا عن فتح عينيّ ومتنفّسًا بصعوبةٍ. حملتني إلى غرفتي. لم أبكِ، لكن في المقابل كان الملك لويس، الذي اختبأ داخل غرفة أمي، يطلقُ صيحات رهيبة لأنه كان مرتعبًا ولأنهم كانوا يسيؤون معاملتي.

اهتاجت جلوريا.

«ذات يوم، ستقتلون هذا الطفل، هذا غير معقول! أنتم وحوش عديمو الرّحمة».

مدّدتني على السرير وذهبت لتجلب وعاء الماء المالح. دخل توتوكا إلى الغرفة مُطأطئ الرأس. طردته جلوريا.

-أخرج من هنا، أيّها الجبان!

-ألم تسمعي كيف كان يشتمها؟

-لم يفعل شيئًا. أنتم قمتم باستفزازه. عندما غادرتُ، كان يصنع كرته بهدوء. أنتم عديمو المروءة. كيف يمكنكم ضرب أخيكم بهذه الطريقة؟

وفي نفس الوقت، كانت تنظّف وجهي. بصقتُ جزءًا من سنّي داخل الوعاء. وأشعل هذا النّار في الرّماد.

«انظر ماذا فعلت، أيّها التّافه. عندما تضطرّ إلى العراك، تجبُن وتناديه طلبًا للمساعدة. أيها الوحش الصغير سأري الجميع فراشك وملابسك الداخلية المبتلة التي تخفيها في درجك كل صباح».

ثمّ أطردت الجميع خارج الغرفة وأغلقت الباب بالمفتاح.

أضاءت النور لأن الليل كان قد أظلم تمامًا. نزعت عني قميصي وغسلت البُقع والجراح على جسدي.

-هل هذا مؤلم، «جُوم»؟

-نعم. هذه المرّة، أشعر بألم شديد.

- سأتصرّف بكلّ لطف، يا شيطاني الصغير العزيز. يجب أن تبقى مُقرفصًا للحظة قصيرة كي يجفّ، وإلاّ فإن الملابس ستلتصق بك وستتألم.

لكنّ ما كان يؤلمني فعلاً هو وجهي. كانت جلوريا ملتهبةً من الألم والغيظ أمام كل هذا الأذى الذي لا سبب له.

عندما تحسّنت الأمور، استلقت بجانبي مداعبةً شعري.

«أرأيتِ، جُودويا. لم أفعل شيئًا. عندما أستحقّ ذلك، لا يهمّني إن ضربتُ. لكنني لم أفعل شيئًا».

تنهّدت.

«ما يحزنني أكثر هو كُرتي. كانت ستكون الأجمل. اسألي لويس».

- أنا متأكدة من هذا. كانت ستكون الأجمل بطريقة رائعة. لا تقلق. غدًا، سنذهب عند ديندينيا وسنشتري ورقًا من الحرير. وسأساعدك على صنع أجمل كرة في العالم. ستكون جميلةً جدًّا إلى درجة أن النجوم ستغار منها.

- لا داعي لهذا، جُودويا. إن أوّل كرة نصنعها هي الأجمل. إذا لم ننجح في صنعها، لن نتمكن من ذلك مطلقًا، أو أنّنا نفقد

الرغبة في القيام بصنعها مجدّدًا.

- ذات يوم...ذات يوم...سآخذكَ بعيدًا عن هذا البيت. سنذهب لنسكن...

لم تُكمل بقيّة كلامها. من المؤكد أنها فكرت في بيت ديندينا، لكن هناك سأصادف الجحيم نفسه. إذن قرّرت الدخول إلى عالم أحلامي، عالم جذع شجرة برتقالي الحلو.

-سآخذك لتعيش في مزرعة طوم ميكس وباك جونز.

-لكنني أفضل فريد طومسون.

-إذن سنذهب لنعيش معه.

ثمّ انخرطنا وسط حالةٍ من الاضطراب في البكاء بصوتٍ منخفضٍ وقد ارتمى أحدنا بين ذراعي الآخر...

وعلى الرغم من حنيني إليه، لم أرَ البرتغالي طيلة يومين. كما لم يسمحوا لي بالذهاب إلى المدرسة كذلك. لم يرغبوا في نشر كلّ تلك الوحشية. مباشرة بعد أن يتلاشى تورّم وجهي وتلتئم جراح شفتيّ، سأستعيد حياتي الطبيعية. قضيت نهاراتي جالسًا بالقرب من مينجوينهو، مع أخي الصغير لويس، دون رغبة في الكلام. كنت أشعر بالخوف من كل شيء. قال لي أبي إنه سيُوسعني ضربًا إذا كرّرت ما قلتُه لجانديرا. حتّى أنّي كنت أتنفّس بصعوبة. كان من الأفضل الاحتماء بالظلّ الصغير لجذع شجرة برتقالي الحلو. مستمتعًا بجبال الصور التي أهداها لي البرتغاليُ، وبتعليم لويس بصبرٍ اللّعب بالكريّات. كان أرعن، سيتعلّم في نهاية الأمر. وخلال هذا الوقت،

كان حنيني شديدًا. لا شكّ أنّ بورتوجا قد اندهش لغيابي، لو كان يعرف أين أسكن بالضبط، لجاء يبحث عنّي. كنتُ مشتاقًا إلى سماع صوته، صوته الذي يحمل الكثير من المحبّة حين يقول لي: «إذن، ناموسة...» كنتُ حزينًا أيضًا لعدم رؤيتي لوجهه الأسمر، ولبدلته الداكنة الأنيقة دائمًا، قميصه ذي الياقة المُنشّاة وكأنها قد خرجت توًا من خزانة الملابس، سترته ذات المربعات، حتى أزرار كُمّيه المذهّبة والتي كانت على شكل مرساةٍ، أشتاق إلى كلّ هذا. لكن قريبًا، قريبًا سأتحسن. جراح الأطفال تلتئم سريعًا، أسرع كثيرًا ممّا تقوله تلك الجملة التي كثيرا ما يكرّرونها على مسمعي: «عندما تتزوج، سيكون الجرح قد شُفي».

في ذلك المساء، لم يخرج أبي. لم يكن هناك أحد في البيت، ما عدا لويس الذي كان نائمًا. يفترض أن تكون أمي قد عادت من المدينة، لكن هناك أسابيع معيّنة تعمل فيها ساعات ليلية إضافية في «المطحنة الإنكليزية» ولم نكن نراها إلاّ يوم الأحد. قررتُ أن أبقى بالقرب من أبي، هكذا، لن أقوم بحماقات. كان جالسًا على الكرسي الهزّاز وينظر إلى الحائط، وعيناه تائهتان في الفراغ. وكالعادة، لم يحلق ذقنه. كما أنّ قميصه لم يكن دائمًا نظيفًا جدًّا. وإذا لم يذهب للعب الورق رفقة أصدقائه، فلأنه لا يملك مالًا بالتأكيد. مسكين أبي، لا شكّ أنّه يشعر بالحزن عندما يفكّر في أنّ أمّي تعمل لإعالة العائلة. وكانت لالا قد أدخلت للعمل في المصنع. إنّه لمن الصعب البحث عن عمل في كل مكان والعودة مُحبطا دائمًا مع هذه الإجابة: نبحث عن شخص أكثر شبابا... كنتُ جالسًا على عتبة الباب، أعدّ السحليات على

الحائط، وأدرتُ رأسي لأنظر إلى أبي.

لم يسبق لي أن رأيته بمثل ذلك الحزن منذ صبيحة عيد الميلاد. يجب أن أفعل شيئًا مّا لأجله. ماذا لو غنّيت؟ أستطيع أن أغنّي بمنتهى اللّطف، سيسلّيه هذا بكل تأكيد في وحدته. استعرضت سجلّ الأغاني التي أحفظها وتذكرتُ آخر أغنية حفظتها مع سنيور أريوُوفالدو. التانغو، كان التانغو من أجمل الأشياء التي كنتُ أعرفها. بدأت بصوتٍ خافتٍ:

أريد امرأة عارية تماما،

عارية تماما أريد الحصول عليها...

في المساء على ضوء القمر.

أريد جسد امرأة..».

-زيزا!

-نعم، بابا». نهضتُ باندفاعٍ. لا شكّ أنّ أبي قد أحبّ التانغو ويريدني أن آتي وأغنّي له عن قرب.

«ما الذي تغنيه؟»

عاودتُ الغناء.

-أريد امرأة عارية تماما...

-من علّمك هذا؟

اكتست عيناه ببريق مُشوّش وكأنه قد أصبح مجنونًا.

-إنه سنيور أريوُوفالدو.

-سبق وأن قلت لك إنّني لا أريدك أن تتسكّع معه في الشارع.

لم يقل هذا أبدًا. وأعتقد أنّه لم يكن يعرف أصلًا بأنني كنت أعملُ مُساعد مغنٍّ.

-أعد هذه الأغنية.

-إنّها أغنية تانغو شائعة. *«أريد امرأة عارية تماما..»*.

هوَت صفعة على خدّي.

-غنّ ثانية.

- *«أريد امرأة عارية تماما..»*.

صفعةٌ أخرى، وأخرى، وأخرى إضافية. انفجرت الدّموع من عينيّ على الرغم مني.

-هيّا، واصل الغناء.

- *«أريد امرأة عارية تماما..»*.

لم يعد بإمكاني تحريك شفتيّ، كنتُ أترنّح. عيناي تنفتحان وتنغلقان تحت وقع الصفعات. لم أعرف هل عليّ أن أتوقف أو أن أمتثل لأوامره... لكنني قرّرت في خضمّ الألم أمرًا: ستكون هذه آخر مرة أتلقّى فيها ضربًا، الأخيرة. أفضّل الموت على هذا...

عندما توقف قليلاً وأمرني بالغناء، لم أغنِّ. نظرت إلى أبي باحتقارٍ كبيرٍ وقلتُ:

«قاتل... اقتلني على الفور. سيثأر السّجن لي».

نهض من الكرسي الهزّاز والشرر يتطاير من عينيه. وفكّ حزامه. هذا الحزام ذا الحلقتين الحديديتين، وأخذ يشتمني وقد استشاط غضبًا ناعتًا إيّاي بالحيوان القذر، بالقمامة، بالخِرقة، هكذا تتحدث مع والدك...

كان الحزام يرتطم على جسدي بقوة رهيبة. فيخيّل إليّ بأن للحزام ألف إصبع معقوف يصل إلى جسمي كلّه. سقطتُ، مُتدحرجًا مثل كرة، في زاوية الغرفة. كنتُ متأكّدًا من أنّه سيقتلني. تبيّنتُ صوت جلوريا التي دخلت كي تنقذني. جلوريا، الشقراء الوحيدة، التي تشبهني. جلوريا التي لا يلمسها أحد. قبضَت على يد أبي وأوقفَت الضربة.

«بابا، بابا. حبّا بالله، اضربني، لكن لا تضرب مُجدّدًا هذا الطفل».

ألقى بالحزام على الطاولة ومرّر يده على وجهه. كان يبكي نفسه ويبكيني.

«لقد فقدتُ عقلي. كنتُ أظنّ بأنه كان يسخر مني. وبأنه يحتقرني».

عندما التقطتني جلوريا من الأرض، أغمي عليّ.

عندما استعدتُ وعيي بالأشياء، كنتُ أرتعش من الحمّى. كانت أمي وجلوريا عند سريري تهمسان في أذني كلامًا عذبًا. داخل القاعة كان هناك الكثير من الجيئة والذهاب لكثير من الناس. حتى أنهم استدعوا ديندينيا. كنت أتألّم كلّما تحرّكتُ. لاحقًا، علمت بأنهم أرادوا أن يستدعوا الطبيب، لكن سينتج عن هذا الأمر تأثير سيّئ.

جلبت لي جلوريا الحساء الذي أعدّته وحاولت أن تطعمني بعض

ملاعق. كنت أتنفس بصعوبة، وأتألم أكثر أثناء البلع. ذهبتُ في نوم عميق لفترة طويلة وعندما استيقظتُ كان الألم قد بدأ في التناقص. قضّت أمّي اللّيل إلى جانبي، وعند الفجر، نهضت كي تجهز نفسها. كان يتوجّب عليها الذهاب إلى العمل. عندما جاءت لتُودّعني، تعلّقتُ بعنقها.

-سيكون كلّ شيء على ما يرام. غدًا، ستتحسّن...

- ماما..

قلتُ بصوتٍ منخفض وقد كان هذا من دون شك أكبر اتّهام ضدّ الحياة...

«ماما، ما كان عليّ أن أولد...كان يمكن أن أكون مثل كرتي..».

داعبت شعري بحزن.

«يُولد الجميع كما يجب أن يُولدوا. بما فيهم أنت. لكنك لا تطاق أحيانًا يا زيزا».

5

طلب ناعم وغريب

احتجتُ أسبوعًا كاملًا كي أتعافى. لم يكن إحباطي ناتجا عن آلامي أو عن الضرب. في الحقيقة، بدؤوا يحسنون معاملتي في البيت، ولم يكن هذا طبيعيًّا. لكنّني كنتُ أفتقد شيئًا مّا. شيئًا مهمًّا كان سيعيدني إلى ذاتي، وربّما إلى الإيمان بالكائنات البشرية، وبطيبتهم. كنتُ هناك، هادئًا، لا أرغب في شيء، أجلس طيلة الوقت تقريبًا بجوار مينجوينهو، أتأمّل الحياة، تائها في لامبالاتي. لم أكن أرغب في الحديث معه ولا في الاستماع إلى قصصه. لكنني، مع ذلك، قبلت أن يظلّ أخي الصغير بالقرب مني. كنا نلعب لعبة تلفريك «خبز السكر» بواسطة الأزرار، كان مُولعًا بهذا ويقضي اليوم وهو يُصعد ويُنزل السيارات من التلفريك. كنت أنظر إليه بحنوّ شديد، لأنني، عندما كنت صغيرا مثله، كنت أحبّ أيضًا هذه اللّعبة...

كان صمتي يثير قلق جلوريا. فتترك في متناول يدي كومة من الصور وكيسي الخاص بالكريّات، التي لم أكن أهتمّ بها في أغلب الأحيان. لم تعد لديّ رغبة في الذهاب إلى السينما ولا في الخروج بصندوقي كماسح أحذية. في الحقيقة، لم أتمكّن من الشفاء من جرحي الداخليّ لحيوان صغير أشبع ضربًا دون شفقة ودون أن يعرف لماذا...

كانت جلوريا تسألني عن عالم أحلامي.

«ليسوا هنا. لقد رحلوا بعيدًا جدًّا..».

كان الأمر يتعلق طبعًا بفريد طومسون وبأصدقائي الآخرين.

لكنها تجهل عمليّة التحوّل التي حصلت لي. ما الذي قررته. سأغير الأفلام. انطلاقًا من الآن، لن أذهب إلاّ لمشاهدة أفلام الحب، مثلما يقول الأشخاص الكبار، أفلام يُقبّل فيها الناس بعضهم، وفيها كل النّاس يحبّون بعضهم البعض. أنا الذي لم أكن أصلح إلاّ للضرب، سأشاهد على الأقلّ الآخرين يحبّون بعضهم بعضًا.

أتى اليوم الذي أستطيع فيه العودة إلى المدرسة. لكنني لم أذهب إلى المدرسة. كنت أعلم بأن «بورتوجا» قد انتظرني أسبوعًا مع سيارتنا، ومن الطبيعيّ، أنه لن يعاود انتظاري ما لم أنبّهه. حتى لو علم بأنني كنتُ مريضًا، فلن يحاول رؤيتي. لقد تعاهدنا، لقد أبرمنا ميثاقًا، حتى الموت، بالحفاظ على سرّنا. لا أحد، ما عدا الله، يجب أن يعلم بصداقتنا.

كانت السيّارة الجميلة متوقفةً قبالة محطة القطارات، قريبًا من محلّ الحلويات. كان هذا أوّل شعاع شمس من الفرح. قفز قلبي المترع بالحنين من الفرح. مفعمًا بالحنين سأرى صديقي. لكن في اللحظة نفسها، انطلق في مدخل المحطة صفير جميل جعلني أرتعش. إنّه «المانجاراتيبا»؛ العنيف، المُتكبّر، سيّدُ السّكك. مرّ بكامل روعته، طائرًا تقريبًا، جاعلاً عرباته تتدافع في ما بينها. كان هناك أناسٌ عند النوافذ ينظرون إلى الخارج. كل هؤلاء المسافرين

كانوا سعداء. عندما كنتُ صغيرًا، كنت أحبّ رؤية المانجاراتيبا وأحبّ توديعه إلى ما لانهاية، إلى أن يختفي القطار. الآن، جاء دور لويس للقيام بهذا.

ألقيتُ نظرةً على طاولات المحلّ، كان هناك جالسًا عند آخر طاولةٍ لكي يتمكّن من رؤية الزبائن يدخلون. كان ظهرهُ لي، من دون سترة، ويرتدي صدريته الجميلة ذات المربّعات التي تبرزُ أكمام قميصه الناصع البياض.

سيطر عليّ إحساسٌ بالوهن، حتّى أنني لم أستطع الاقتراب منه. نبّهه سنيور لاديسالُو إلى وجودي.

«انظر مَن هنا، بورتوجا».

استدار ببطءٍ وقد أضاء وجهه بابتسامةٍ سعيدة. فتح ذراعيه وضمّني إليه مُطوّلًا.

«شيء مّا قال لي بأنك ستأتي اليوم».

ثمّ نظر إلي.

-إذن، أيّها الهارب الصغير، أين كنت طيلة هذا الوقت.

-كنتُ مريضًا جدًّا.

سحب كرسيًّا.

«اجلس».

نقر بأصابعه مناديًا النادل الذي يعرف جيّدًا رغباتي. لكنّه حين وضع أمامي الليموناضة والكعك، لم أمسسهما. أسندتُ رأسي فوق ذراعيّ وظللتُ هكذا. كنتُ أشعر بنفسي مُنهزمًا وحزينًا.

«ألا تريدها؟».

وبما أنني لم أجبه، رفع بورتوجا وجهي. كنت أعضّ بشدّة على شفتيّ وكانت عيناي مبتلتين.

-لنرَ، ما الذي يحصل، ناموسة؟ احكِ لصديقك العجوز...

-لا أستطيع. ليس هنا..

هزّ سنيور لاديسالُو رأسه كنايةً على عدم فهمه ما يحدث. قرّرتُ قول شيء مّا.

-بورتوجا، هل صحيح بأن السيّارة، «سيّارتنا»؟

- أجل. هل مازلت تشكّ في الأمر؟

- هل تريد اصطحابي للقيام بجولة؟

فاجأه طلبي.

وعندما لاحظ انهمار دموعي، أمسكني من يدي وقادني حتى السيّارة حيث أجلسني من دون أن يحتاج إلى فتح الباب.

عاد ليدفع ثمن ما استهلكناه وسمعته يتحدّث إلى سنيور لاديسالُو وآخرين.

-لا أحد يفهم هذا الصغير في منزله. لم أرَ مطلقًا طفلاً بمثل هذه الحساسية.

-اعترف بالحقيقة، بورتوجا. أنت تحبّ كثيرًا هذا الشيطان الصغير.

- أكثر بكثير ممّا تعتقده. إنه ناموسة ذكيّة ورائعة.

عاد إلى السيارة وجلس.

-إلى أين تريد الذهاب؟

-أريد المغادرة وحسب. نستطيع الذهاب إلى طريق «موروندُو». إنه قريب، لن يكلّف هذا الكثير من البنزين.

ضحك.

«ألستَ صغيرًا جدًّا كي تشغل بالك بمشاكل الأشخاص الكبار؟».

كان الفقرُ مستفحلاً حتّى أنّنا تعلّمنا في وقت مبكّر الاقتصاد في كلّ شيء. كلّ ما يكلّف مالاً، كان غاليًا.

لم يقل شيئًا خلال رحلتنا القصيرة. وتركني لأستعيد هدوئي. لكن حين ابتعدنا عن كل شيء وتحوّل الطريق إلى مرج أخضر رائع، أوقف السيارة، نظر إلي وابتسم بطيبة عوّضت كلّ الطيبة التي يفتقدها بقيّة النّاس.

-بورتوجا، تأمّل وجهي، أو بالأحرى خطمي، لا وجهي. في البيت، يقولون بأن لي خطمًا لأنني لستُ إنسانًا، بل حيوانًا هنديًا من قبيلة بيناجيه، ابن شيطان.

-ما زلتُ مع ذلك أفضّلُ النظر إلى وجهك.

-لكن انظر جيّدًا. انظر إلى كلّ هذه الكدمات.

اكتست عينا البرتغالي بمسحةٍ من الحزن والقلق.

«لكن لماذا فعلوا بك هذا؟».

ورويتُ له، رويتُ له كلّ شيء، من دون أيّة مبالغة. عندما

انتهيت، كانت عيناه رطبتين ولم يكن يعرف ما الذي عليه فعله.

«ليس من المعقول ضرب طفلٍ صغيرٍ مثلك بهذه الطريقة. لم تبلغ ست سنوات. النجدة يا سيّدة فطيما[1]!».

-أعلم لماذا. أنا لا أساوى شيئًا. أنا سيّئ إلى درجة أنّ شيطانًا صغيرًا كان يولد من أجلي بدَلاً عن الطفل يسوع!...

-هذه حماقات، أنت ملاك حقيقي. ربما كنت ولدا مشاكسا قليلا..

وعادت تلك الفكرة الثابتة لتثير قلقي.

«أنا سيئ حتّى أنّه ما كان لي أن أولد أصلًا. لقد قلتُ هذا لأمي في ذلك اليوم».

تلعثم لأوّل مرّة.

-ما كان لك أن تقول هذا.

-طلبتُ أن أتحدّث إليك لأنني كنت بالفعل في حاجةٍ إلى هذا. أعرف مدى فظاعة ألاّ يجد أبي عملًا لأنه عجوز طاعن في السنّ. أعرفُ بأن هذا يجعله تعيسًا جدًّا. يجب على أمي مغادرة المنزل في وقت باكر جدًّا كي نتمكن من دفع مصاريف البيت. إنها تعمل في الحِياكة «بالطاحونة الإنكليزية». وهي تحمل حزامًا لأنها حملت صندوق لفائف الخيوط فتسبّب لها ذلك في تمزّق. لالا صبيّة درست كثيرًا واضطرّت إلى أن تصبح عاملةً

(1) تسمية اخرى لمريم العذراء حيث يقال بأنها تجلّت ثلاث مرات لصغار في قرية صغيرة في البرتغال اسمها فطيما.

في المصنع... كلّ هذا، غير عادل. لكن مع ذلك، لم يكن عليه ضربي بكل تلك القوّة. في عيد الميلاد، وعدته بأن بإمكانه ضربي قدر ما يشاء، لكن هذه المرّة قد طفح الكيل».

نظر إلي، مُتعجّبًا.

«بركاتك يا سيّدة فطيما! كيف يمكن لطفل أن يتفهّم هكذا مشاكل الكبار ويتبنّاها؟ لم يسبق لي أن رأيت مثل هذا!».

تنهّد.

-هل نحن أصدقاء، نعم أم لا؟ سوف نتحدّث رجُلاً لرجل. على الرغم من أن لحمي يقشعرّ عندما أتحدّث إليك حول مواضيع مُعيّنة. حسنًا، في رأيي ما كان عليك أن تقول تلك الكلمات النابية لأختك. بالإضافة إلى ذلك ليس من المُفترض أن تتفوّه على الإطلاق بكلمات نابية، هل تعلم؟

-لكنني صغير. إنها الوسيلة الوحيدة التي أمتلكها لأثأر لنفسي.

-هل تعلم ما الذي تعنيه تلك الكلمات؟

أشرت أن نعم برأسي.

-إذن، ليس بإمكانك قولها ولا يجب أن تقولها.

-بورتوجا!

خيّم صمت.

-امم.

-لا تريد أن أتفوّه بكلمات بذيئة؟

-مطلقًا.

-حسنا، إذا لم أمُت، أعدك بأنني لن أقولها مُجدّدًا.

-جيّد جدًّا. ولكن ما هي حكاية الموت هذه؟

-سأشرح لك لاحقًا.

صمت جديد. كان البرتغالي مشغول البال.

-أريد أن أعرف أمرًا آخر بما أنك تثق فيّ. هذه الأغنية المشهورة، التانغو، هل كنت تعرف ما الذي كُنت تغنّيه؟

- لا أريد أن أكذب عليك. لم أكن أعرف بالضبط. حفظتها لأنني أحفظ أي شيء ولأن الموسيقى كانت جميلة. من دون أن أفكر في معانيها... لكنه آلمني بضربه كثيرًا، بورتوجا، كثيرًا... هذا لا يهم...

نخرتُ طويلا بأنفي.

-هذا لا يهمّ، سأقتله.

-ما الذي تقوله، أيها الصغير، تقتل أباك؟

-أجل، سأفعل هذا. سبق وأن بدأتُ. القتل، هذا لا يعني بأنني سألتقط مسدّس باك جونز وأطلق عليه الرصاص! لا. سأقتله داخل قلبي، بالتوقف عن حبّه. وذات يوم سيموت.

-يا لكلّ هذا الخيال في هذا الرأس الصغير!

قال هذا لكنه لم يتمكن من إخفاء التأثر الذي سيطر عليه.

-لكن أنا أيضا، سبق وأن قلت بأنك ستقتلني...

-قلتُ هذا في البداية. لاحقًا، قتلتك بالمقلوب. بأن جعلتك تولد

داخل قلبي. أنت الشخص الوحيد الذي أحبّه، بورتوجا. الصديق الوحيد الذي أملكه. هذا ليس لأنك تعطيني صورًا، ليموناضة، كعكا وكريّات... أقسمُ لك بأنني أقول الحقيقة.

- أصغ إليّ، الجميع يحبّونك. أمّك وحتّى أبوك، أختك جلوريا، والملك لويس... وجذع شجرة البرتقال الحلو الخاصّ بك، هل نسيته؟ المدعوُ مينجوينهو و...

-كزوروروكا.

-حسنًا، إذن!..

-الآن، لم تعد الأمور مثلما كانت، بورتوجا. كزوروروكا هو مجرّد شجرة برتقال بسيطة عاجزة حتى عن إعطاء زهرة... هذه هي الحقيقة... لكن أنت، لا. أنت صديقي، لأجل هذا طلبت منك أن نتجوّل في سيارتنا التي ستكون قريبًا لك فقط. لقد جئتُ كي أقول لك وداعًا.

- وداعًا؟

- هذا صحيح. كما ترى، أنا لا أصلح لشيء، لقد تعبت من تلقّي الضربات ومن شدّهم لأذنيّ. سأتوقف عن أن أكون فمًا إضافيًّا...

بدأت أشعر بغصّةٍ مؤلمة في حلقي. كنت أحتاج إلى كثير من الشجاعة لقول البقية.

-هل ستهرب؟

-لا، لقد فكّرتُ في هذا طيلة الأسبوع. هذا المساء، سألقي

بنفسي تحت «المانجاراتيبا».

لم يقل شيئًا. ضمّني بقوّة بين ذراعيه وواساني بطريقة اختصّ بها وحده.

«لا. لا تقل هذا، حبًا بالله. أمامك حياة جميلة. بهذه المخيّلة وهذا الذكاء. لا أريدك أن تعيد التفكير في هذا مجدّدًا أو أن تكرّره! وأنا؟ ألا تحبني؟ لو كنت تحبّني حقًّا، ولم تكن تكذب عليّ، عليك ألاّ تتحدث مُجدّدًا بهذه الطريقة».

ابتعد عني ونظر إلي مباشرة في عينيّ. مسح دموعي بقفا يده.

-أحبّك كثيرًا يا ناموسة أكثر ممّا تتصوّر، يا الله، ابتسم. كلّ شيء سيمرّ. قريبًا، ستصبح سيّد الشارع بطائراتك الورقية، ستصبح ملك الكريّات، راعي بقر قويا كباك جونز... ومن ناحية أخرى، فكرّتُ في أمرٍ. هل تريد أن تعرف؟

-أجل.

-السبت، لن أذهب لرؤية ابنتي في أونكانتادو. ليست هناك، ذهبت لقضاء بضعة أيّام برفقة زوجها. بما أن الطقس جميل، فكرّت في الذهاب للصيد في جواندو. وبما أنني لا أملك صديقًا كبيرًا ليُرافقني، فقد فكرتُ فيك.

التمعت عيناي.

-ستصطحبني؟

-بكلّ تأكيد، إذا شئت. لست مضطرًا لقبول دعوتي.

وعلى سبيل الإجابة، ضغطتُ خدّي على خدّه الملتحي، ووضعتُ ذراعيّ حول عنقه وضممته بكلّ ما أوتيت من قوّة.

كنّا سعيدين، فقد أصبحت المأساة نسيًا منسيًا.

-هناك ركن جميل. سنحمل معنا شيئًا لنأكله. ما الذي تفضّله؟

- أنتَ، بورتوجا.

- أتحدث عن السّالامي، البيض، الموز...

- أحبّ كل شيء. في البيت، نتعلّم أن نحبّ كلّ ما هو موجود وكلّ ما نحصل عليه.

- إذن هل نذهب؟

- لن أتمكّن من النوم وأنا أفكّرُ في الأمر.

لكنّ مشكلة خطيرة ألقت بظلالها على سعادتي.

-وما الذي ستقوله كي تبقى خارج البيت طيلة يوم كامل؟

-سأختلق سببًا.

-وإذا ما ضربوك، لاحقًا؟

-حتى نهاية الشهر، لا أحد سيضربني. لقد وعدوا جلوريا بهذا وهي عنيفةٌ، إنها الشقراء الوحيدة، بالإضافة إلي.

-هل هذا صحيح؟

-نعم! هذا صحيح. لا يستطيعون لمسي إلا بعد نهاية شهر، عندما أكون قد تعافيتُ.

شغّل المحرك وسلك طريق العودة.

-إذن، لن نتحدث عن هذا أبدًا؟

-ما هو الهذا؟

-«المانجاراتيبا».

-سأنتظر قليلًا قبل القيام بهذا...

-هذا أفضل.

عرفتُ لاحقًا من سنيور لاديسلو بأنّ بورتوجا، رغم وعدي، لم يعد إلى بيته إلاّ بعد مرور المانجاراتيبا تلك الليلة، في وقت متأخر جدًّا.

اجتزنا طريقًا جميلًا. لم يكن مُبلّطًا لكن به الكثير من الأشجار والمُروج، إنّه أعجوبة حقيقية. دون الحديث عن الشمس والسماء ذات الزرقة البهيجة. ذات يوم، قالت لي ديندينيا بأن الفرح شمس تشعّ داخل القلب، وبأنّ الشمس تشعّ على كل شيء بالسعادة. وإذا صحّ هذا، فإن شمسي الداخلية كانت تجمّلُ كلّ شيء...

كنّا نتحدّث في أمور كثيرة فيما كانت السيارة تنساب على الطريق ببطءٍ. كما لو كانت ترغب في الاستماع إلى محادثتنا.

-إذن، عندما تكون معي، فأنت ولد عاقل مثل صورة. تقول بأن معلّمتك... ماذا كان اسمها؟

-دُونا سيسيليا بايم. هل تعلم، لديها لطخة بيضاء على عينها...

-دُونا سيسيليا بايم، إذن، لا تصدّق بأنك تقوم بكل هذه الحماقات عندما لا تكون في الفصل. مع جلوريا وأخيك

الصغير، أنت طيّب. إذن لماذا تتغيرُ هكذا؟

-لا أعرف. أعرف فقط بأن كل ما أقوم به ينتهي بحماقات. كل من في الشارع يعرفون مقالبي السيئة. وهم ما يدعو إلى الاعتقاد بأنّ الشيطان يهمس لي بأشياء بصوت منخفض. وإلا فإنني لن أبتكر كلّ هذا القدر من الشقاوة، مثلما يقول العم إدموندو. هل تعرف ما الذي فعلُته للعم إدموندو، ذات مرة؟ لم أروِ لك هذا أبدًا؟

-أبدًا.

-لاحظ بأنّ هذا الأمر قد وقع منذ ستة أشهر على الأقل. لقد تلقّى أرجوحة نوم من الشمال، وكان سعيدًا جدًّا بها. ولم يكن يسمح لي بالتأرجح فيها، ابن القـ...

-ما الذي قلته؟

-حسنًا، البائس، عندما انتهى من قيلولته، رفع الأرجوحة وحملها تحت ذراعه. كما لو أنني سأحوّلها إلى مزق! وذات يوم، ذهبت إلى بيت ديندينيا ولم تبصرني وأنا أدخل. لا شكّ أنها قد وضعت نظاراتها على طرف أنفها كي تقرأ إعلانات الجريدة. درتُ حول البيت ونظرت إلى أشجار الجوّافة، لا شيء. عندئذٍ، رأيتُ العم إدموندو يشخر في أرجوحته، كان قد علّقها بين السياج وشجرة برتقال. كان يشخر مثل خنزير، وفمه مفتوح جزئيًا. كانت جريدته قد سقطت أرضًا. وعندها همس لي الشيطان بأمر مّا وتذكّرتُ بأن لديّ علبة ثقاب في

جيبي. انتزعت جزءًا من الجريدة ومع بقية الأوراق قمتُ بتشكيل كومة صغيرة أضرمت فيها النار وعندما تصاعد اللّهب تحت...

توقفتُ وسألتُ بجديّة:

بورتوجا، «مُؤخرة»، هل أستطيع قول هذه الكلمة؟

-امم، ليست كلمة جميلةً جدًّا، لا يجب ترديدها كثيرًا.

-إذن، ما الذي يمكننا قوله حين نريد قول «مُؤخرة»؟

-خلفيّة.

-كيف؟ عليّ أن أتعلم هذه الكلمة المُعقّدة جدّا؟

-خلفيّة. *خل-فيّ-ية*.

- حسنًا، عندما بدأت في الاشتعال تحت خلفيّة مؤخرته، غادرتُ راكضًا، خرجتُ من البوّابة الصغيرة ونظرتُ من ثقب صغير في السياج لمعرفة ما سيحصل. سمعتُ صرخةً كبيرةً. قفز العجوز في الهواء ورفع الأرجوحة. اندفعت ديندينيا وجزرته بالإضافة إلى ذلك: «لطالما حذّرتك بألاّ تُدخّن فوق أرجوحتك». وعندما شاهدت الجريدة المُحترقة، تأسّفت لعدم قراءتها.

ضحك البرتغالي من صميم قلبه، وكنت سعيدًا لرؤيته مبتهجًا.

-هل ضربوك؟

-لم يكتشفوا شيئًا. لم أحك الأمر إلا لكزوروروكا. لو علموا

بالأمر، لكانوا قطعوا لي...

-قطعوا ماذا؟

-حسنًا، سيقومون بإخصائي.

ضحك من جديد وواصلنا ونحن نتأمّلُ الطريق. أثارت السيارة ترابًا أصفر. وكنتُ أفكّر في شيء مّا.

-بورتوجا، لم تكذب عليّ، أليس كذلك؟

-بخصوص ماذا، ناموسة؟

-لأنه لم يسبق لي أن سمعتُ أحدهم يقول: لقد تلقّى ركلة في الخلفيّة. هل سمعت أنت؟

ضحك من جديد.

«أنت رهيب. ولا أنا. انس كلمة خلفيّة واستبدلها بكَفل. لكن دِعنا نُغيّر الموضوع وإلاّ التبس عليّ الأمر وعجزت عن الإجابة. تأمّل المشهد، كل هذه الأشجار العالية، نحن نقترب من النهر».

استدار إلى اليمين وانخرط في مُفترق طرق. تقدّمت السيارة، تقدّمت وتوقفت وسط فسحة مُجرّدة من الأشجار في قلب الغابة. لم يكن هناك سوى شجرة واحدة بجذور ضخمة. وصفّقتُ بيديّ من فرط فرحتي.

«كم هذا جميل يا لهذه الفسحة الجميلة! عندما سألتقي بباك جونز، سأخبره بأن سهوله ومروجه ليست بجمال فسحتنا».

مرّر يده على شعري.

«هكذا أحبّ أن أراك، وأنت تعيش أحلامًا لذيذة لا أن أراك بعناكب داخل الرأس».

نزلنا من السيارة وساعدته على حمل الأغراض إلى ظلّ الشجرة.

-هل تأتي دائمًا بمفردك إلى هنا. بورتوجا؟

-تقريبًا. أرأيت؟ أنا أيضًا، لديّ شجرة.

-ما اسمها، بورتوجا؟ عندما يكون لدينا شجرة كبيرة هكذا، يجب أن نطلق عليها اسمًا.

فكّر، ابتسم وفكر من جديد.

-إنه سرّي، لكنني سأبوح لك به. اسمها الملكة شارلوت.

-وهل تتحدّث إليك؟

-كلاّ! لا تتكلّم لأنّ الملكة لا تتكلّم أبدًا مباشرةً مع رعيّتها. لكنني أناديها دائما «جلالتك».

-ما هي الرعيّة؟

-إنه الشعب الذي يمتثل لما تأمر به الملكة.

-هل أستطيع أن أكون أنا من رعيتك؟

أطلق ضحكة كلّها فرح حرّكت الأعشاب الصغيرة.

«كلاّ، لأنني لستُ ملكًا، لا أحكم. فأنا أستعين بك دائمًا».

-لكنك تستطيع أن تكون ملكًا. لديك كل ما يلزم كي تكون ملكًا. فالملوك، ضخام مثلك. ملك الكبّا، الملك البستونيّ، ملك النفل

(ملك السِباتي)، ملك الماس، كل الملوك في لعبة الورق وسيمون مثلك، بورتوجا.

-هيّا، هيّا بنا، إلى العمل. وإلاّ فإنّنا لن نصطاد شيئًا، مع كلّ هذه الثرثرة.

أخذ قصبة الصّيد، وعلبة ممتلئة بديدان الأرض، خلع حذاءه وسترته. كان يبدو أضخم من دون سترته. أشار إلى النهر.

«هنا، تستطيع أن تلعب، هذه الجهة مُسطّحة. لكن لا تذهب إلى الجهة الأخرى، إنها عميقة جدًّا. الآن، سأصطاد. إذا كنت تريد البقاء برفقتي، يجب أن لا نتحدث، وإلا ستهرب الأسماك».

تركته يصطاد وغادرتُ بحثًا عن المغامرة. لاكتشاف الأشياء. كم كان جميلاً ذلك الموقع من النهر. غمّستُ قدميّ في الماء ورأيت عددًا كبيرًا من الضفادع الصغيرة في كل الجهات. تأملّتُ الرّمل، الحصى، الأوراق التي حملها التيار. فكّرت في جلوريا.

اتركني، أيّها النبع، تقول
الوردة وهي تبكي
لقد وُلدتُ فوق التلال
لا تحملني باتجاه البحر.
متعب! يا لتأرجح الأغصان
يا لقطرات النّدى الصافية
تتساقط من السّماء الزرقاء...
لكن النبع صاخبًا وباردًا

يجري مع حفيف ساخر

فوق الرّمل

يجري حاملًا الوردة...

كانت جلوريا مُحقّة. كان هذا أروع شيء في العالم. يا لها من خسارة إذ لا أستطيع أن أروي لها كيف رأيت الشعر حيّا. لم تكن وردة بل أوراقًا صغيرة تساقطت من الأشجار وانجرفت باتجاه البحر. هل كان النهر، هذا النهر يتجه أيضًا نحو البحر؟ أستطيع أن أسأل بورتوجا عن هذا الأمر. لا، سأربك صيده. لكن نتيجة الصّيد تمخّضت عن سمكتيْ «لامباري» ضئيلتين، كان الاحتفاظ بهما مثيرًا للشفقة.

كانت الشمس تتوسّط كبد السماء. وكان وجهي مُلتهبًا لفرط لعبي وثرثرتي مع الحياة. عندها اقترب مني بورتوجا وناداني. جئتُه راكضا مثل جدي.

-أنت مُتّسخ، ناموسة.

-لقد لعبت ما شاء لي أن ألعب. استلقيتُ على الأرض. وتخبّطتُ في الماء...

-سنتناول الطعام. لكنك لا تستطيع أن تأكل هكذا، وأنت وسخ مثل خنزير صغير. هيّا، اخلع ثيابك واغطس حيث مستوى الماء منخفض.

لكنني ظللتُ مُتردّدا دون رغبة في الامتثال لأوامره.

-لا أعرف السّباحة.

-لا بأس . هيّا، سأمكث قريبا منك.

لم أتحرّك. لم أكن أريد أن يرى...

-لا تقل لي بأنك تشعر بالخجل من خلع ثيابك أمامي...

-لا. ليس هذا...

لم يكن لديّ حلّ آخر، استدرتُ وبدأتُ في خلع ثيابي. قميصي أوّلًا، ثمّ بنطالي بحمّالاته المصنوعة من القماش.

ألقيتُ بكلّ شيء على الأرض واستدرتُ نحوه بهيئة مُستجدية. لم يقل شيئًا على الإطلاق، لكن الرّعب والغضب كانا بارزين في عينيه. لم أرغب في أن يرى العلامات والجراح وآثار الجلد الذي تلقيته.

اكتفى بأن همس:

-إذا كان هذا يؤلمك، لا تدخل الماء.

-لم يعد يؤلمني الآن.

تناولنا بيضًا وسالامي وخبزا وكعكًا بالموز أحبّه كثيرًا! شربنا من ماء النهر وعدنا للجلوس تحت الملكة شارلوت.

في اللّحظة التي همّ فيها البرتغالي بالجلوس، أشرتُ عليه بالانتظار.

ألقيتُ بالتحيّة على الشجرة ويدي على صدري.

«جلالة الملكة، رعيّتك مانويل فالداريس هو أكبر مقاتل من أمّة البيناجيه... سنجلس تحت جلالتك..».

وجلسنا ضاحكين.

استلقى بورتوجا على الأرض، وقد لفّ سترته حول غصن من الشجرة على شكل وسادة وقال لي:

-الآن، حاول أن تغفو قليلاً.

- لكنني لا أرغب في هذا.

- لا يهم لا أريد إطلاقك في الجوار، وأنت الشيطان.

وضع يده على صدري ومنعني من القيام. تأمّلنا لفترة طويلة السحب التي كانت تفرّ من خلال أغصان الشجرة. كانت تلك هي اللحظة المُثلى. إن لم أتكلم الآن، فلن أفعل هذا أبدًا.

-بورتوجا!

-امم

-هل تنام؟

-ليس بعد.

-هل صحيح ما قلته لسنيور لاديسلو في محلّ الحلويات؟

-لقد قلت العديد من الأشياء لسنيور لاديسلو في محلّ الحلويات!

-بخصوصي. سمعتُ، من السيّارة...

-وما الذي سمعته.

- بأنك تحبّني كثيرًا...

- بكل تأكيد أحبّك. وإذن؟

عندئذٍ استدرتُ ناحيته دون أن أتحرّر من ذراعيه. تأمّلتُ مليًّا عينيه نصف المغلقتين. كان وجهه أكبر وهو مغمض العينين، فيزداد

شبهًا بالملوك.

-لقد أردتُ معرفة ما إذا كنت تحبّني فعلا.

-بكل تأكيد، أيّها الأحمق الكبير.

وضمّني إليه بقوّة أكبر كي يبرهن على ما قال.

-لقد فكّرت جيّدا. لديك فقط تلك البنت التي تعيش في الأوكانتادو، أليس كذلك؟

-بلى.

-وتعيش بمفردك في هذا البيت مع قفصين للعصافير، أليس كذلك؟

-بلى.

-وقلت لي بأن ليس لديك أحفاد، أليس كذلك؟

-بلى.

-وقلت لي بأنك تحبني، أليس كذلك؟

-بلى.

- إذن، لماذا لا تذهب إلى بيتنا وتطلب من أبي أن يَهبني لك؟.

كان من التأثّر حتّى أنّه جلس وأمسك بوجهي بين يديه الاثنتين.

-هل ترغب في أن تكون ولدي الصغير؟

-لانستطيع اختيار أبينا قبل ولادتنا. لكن لو كان بإمكاني لاخترتك أنت.

-هل هذا صحيح، ناموسة؟

-أستطيع أن أؤكّد لك هذا. ثم إنني سأريح عائلتي من إطعامي والعناية بي. أعدك بأنني لن أقول كلمات بذئية أبدًا، بما في ذلك كلمة مؤخرة. سألّمع أحذيتك، سأداوي العصافير. سأكون ولدًا عاقلاً دائمًا. سأكون أفضل تلميذ في المدرسة. سأقوم بكل شيء بطريقة جيّدة جدًّا.

أُرتجَ عليه فلم يُحر جوابًا.

-في البيت، سيجنُّ الجميع من الفرح لو تخلّصوا منّي. سيكون هذا ارتياحًا. لديّ أخت، بين أنطونيو وجلوريا، أعطوها لعائلة في الشمال. ذهبت لتعيش مع قريبةٍ غنيّة لتدرس وتصبح شخصية معتبرة...

تواصل الصمت فيما كانت عيناه ممتلئتين بالدّموع.

«إن لم يرغبوا في التنازل عنّي، بإمكانك أن تشتريني. أبي لا يملك مالًا على الإطلاق. أنا متأكد من أنّه سيبيعني. إذا ما طلب سعرًا مرتفعًا، تستطيع أن تقسّطه على عدّة مرّات، كما يفعل سنيور جاكوب في متجره..».

عندما لاحظت بأنه لا يجيب، استلقيتُ مُجدّدًا وحذا هو حذوي.

«أتدري، لم أكن أرغب في حملك على البكاء وأنت تعرف ذلك..».

داعب شعري ببطءٍ.

«ليس هذا، يا بُني، ليس هذا. فليس من السّهل أن نحوّل الحياة بحركة خفّة بسيطة. لكنّني سأقترح عليك أمرًا مّا. لا أستطيع أن أنتزعك من والديك ومن عائلتك. بالرغم من أنني كنت

أودّ لو كان في مقدوري ذلك. لا أمتلك الحقّ في هذا. لكن من الآن فصاعدًا، سأعاملك كما لو كنت ابني، كما لو أنك حقًّا ابني».

انتصبتُ واقفًا من شدّة فرحي.

-هل هذا صحيح، بورتوجا؟

-أستطيع أن أؤكّد لك هذا، كما تقول.

قمت بأمر من النادر أن أقوم به ومع أفراد عائلتي فقط. قبّلتُ وجهه الكبير الطيب، المتناهي الطيبة...

6

أشياء بسيطة تصنع الحنان

-لم تكن أيّ منها تتكلم، لم يكن باستطاعتك أن تمتطيها كحصان، بورتوجا؟

- نعم.

-ومع ذلك كنت طفلًا؟

-نعم. لكن الأطفال ليسوا كلّهم محظوظين مثلك ليفهموا الأشجار. كما أنّ الأشجار لا ترغب كلّها في الحديث».

ضحك بودّ وواصل:

«لم تكن فعلًا أشجارًا، كانت كُرومًا، وقبل أن تسألني، سأشرح لك: الكروم، هي أشجار العنب. وينمو العنب عليها. كانت نوعًا من أنواع الكروم الضخمة المتسلّقة. إنها جميلة في موسم جني العنب (شرح لي) والنبيذ الذي نصنعه في المعصرة (شرح لي من جديد)..».

شيئًا فشيئًا، تعلّم كيف يشرح لي الكثير من الأمور العلميّة تمامًا مثل العم إدموندو.

-حدّثني بعد.

-هل يعجبك هذا؟

-كثيرا. لو كان بإمكاني، لتحدثت معك مسافة ثمانمائة واثنين وخمسين ألف كيلومترًا من دون أن أتوقف.

-والبنزين في كلّ هذا.

-سنتظاهر بهذا.

ثمّ حدثني عن العشب الذي يتحوّل إلى علف، في فصل الشتاء، وعن صنع الجبن. كان يغيّر من الكلمات لكني كنت أجد ذلك أكثر متعة.

توقف عن الكلام ثم أطلق تنهيدة كبيرة...

«أوّد لو أعود إلى هناك، قريبًا. أنتظر شيخوختي بهدوء في مكان ساكن، ساحر. في فُولادال، قريبًا من مُونريال، في «تراس-أوس-مُونتيس» الرّائع الذي أملكه».

لم يسبق لي حتى تلك اللحظة أن لاحظتُ بأن بورتوجا كان أكبر سنّا من أبي، مع أنّ وجهه الضخم كان أقلّ تجعّدًا ودائم الإشراق. شيء غريب هزّني من الأعماق.

«هل تتكلّم بجديّة؟».

عندئذ لاحظ خيبتي.

-أيها الأحمق، سيحدث هذا بعد وقت طويل جدًّا. وربّما لن أعود إلى هناك أبدًا طيلة حياتي.

- وأنا؟ لقد تكبّدت الكثير من العناء كي تُصبح مثلما أردتك أن تكون.

وعلى الرغم منّي، اغرورقت عيناي بالدّموع.

-عليك أن تقرّ بأن لي، أنا أيضًا، أحلامي.

-لكنك لم تجعلني جزءًا من حلمك.

ابتسم مسرورًا.

«أنتَ، أجعلك جزءًا من أحلامي كلّها، بورتوجا. عندما أمضي في السهول الخضراء الشاسعة مع طوم ميكس وفريد طومسون، استأجرتُ عربة كي تسافر من دون أن ينال منك التعب كثيرًا. في كل الأماكن حيث أذهب، تكون أنت موجودًا. من وقت إلى آخر، في المدرسة، أنظر إلى الباب وأفكر في أنك قد تظهر وتقول لي صباح الخير...

-يا إلهي! لم يسبق لي قطّ أن رأيتُ قلبًا صغيرًا متعطّشًا كلّ هذا العطش إلى الحنان... لكن لا يجب أن تتعلق بي إلى هذه الدرجة، هل تعلم؟..

هذا ما كنتُ أرويه لمينجوينهو الذي كان ثرثارًا أكثر مني.

«هذا صحيح. كزوروروكا، منذُ أصبح كزوروروكا أبي، اكتشفتُ أنّه مثل أمٍّ حنون حقيقيّة. كلّ ما أقوم به، يجده حسنًا. لكنه يجده حسنًا على طريقته. ليس مثل الآخرين الذين يقولون: سيمضي هذا الولد بعيدًا. سأمضي بعيدًا، لكنني لن أخرج أبدا من بانجو».

نظرتُ إلى مينجوينهو بحنان. منذ اكتشفت معنى الحنان حقًّا، غمرتُ بحناني كل ما أحبّه.

-أتعرف، مينجوينهو، أريد أن يكون لي اثنا عشر طفلا واثنا عشر إضافيين. هل تفهم؟ سيظل الاثنا عشر طفلاً الأوائل أطفالاً ولن يتعرّضوا إلى الضرب أبدًا. أما الآخرون فسيصبحون رجالًا. وسأسألهم: «ما الذي تريد أن تكونه، يا صغيري؟ حطّابا؟ حسن جدًّا، هاهي الفأس وها هو القميص الأسكتلندي[1]. وأنت، تريد أن تصبح مُروِّضًا في سيرك. حسن جدًّا، هاهو السّوط والزيّ...

- وفي أعياد الميلاد، كيف ستصنع مع كل هذا العدد من الأطفال؟

هذا المينجوينهو! يقاطعني في لحظة مُماثلة...

«في أعياد الميلاد، سيكون لديّ الكثير من النقود. سأشتري شاحنة من الكستناء والبُندق. سأشتري جوزًا وتينًا وزبيبًا. سيكون هنالك من الألعاب ما يجعلهم يعيرون بعضًا منها ويعطون للجيران الصغار الفقراء... سيكون لديّ الكثير من النقود لأنني أريد منذ الآن أن أكون ثريًّا، ثريًّا بل أريد أيضًا الفوز في اليانصيب...

نظرتُ إلى مينجوينهو بتحدٍّ ولمته على تدّخله.

-دعني أروِ لك البقية، يوجدُ بعد الكثير من الأطفال. حسنًا، هل تريد أن تكون راعي بقر، يا ابني؟ ها هو السرج والأنشوطة. تريد أن تكون سائق المانجاراتيبا؟ ها هي القبّعة والصفّارة...

-لماذا الصفّارة، زيزا؟ أصبحت مجنونًا لفرط حديثك مع نفسك...

---

(1) القميص المنقوش بالمربعات نسبة إلى اسكتلندا.

كان توتوكا قد وصل، وجلس بالقرب مني. تأمل بابتسامة وديّة جذع شجرة برتقالي الحلو، المُزيّن بالشرائط وبأغطية قناني البيرة. كان يرغب في شيءٍ مّا.

-زيزا، هل تريد إقراضي أربعمائة رايس؟

-كلاّ.

-لكنّك تملكها، أليس كذلك؟

-بلى! أملكها.

- وتقول بأنك لن تقرضني إيّاها من دون أن تعرف ماذا سأفعل بها؟

- أريد أن أصبح غنيًّا جدًّا كي أتمكّن من الذهاب إلى تراس- أوس- مونتيس.

-ماهذه الترّهات الجديدة؟

- لن أخبرك بالأمر.

- حسنًا، احتفظ به لنفسك.

- سأحتفظ به لنفسي ولن أقرضك الأربعمائة رايس.

- أنت ماهر مثل فأر، تُصوّبُ جيّدًا. غدًا، تلعب وتفوز بكريّات أخرى تستطيع بيعها. خلال بضع دقائق تستطيع تعويض الأربعمائة رايس.

- هذا لا يمنع من أنّني لن أقرضك إيّاها. ولا تحاول أن تتشاجر معي. أريد أن أكون ولدًا عاقلًا، لا أهتم بشؤون أحد.

- لا أريد أن أتشاجر. لكنك أخي المُفضّل. وها قد أصبحت وحشًا قاسي القلب...

- لستُ وحشًا. أنا من سكنة الكهوف.

-أنت ماذا؟

-من سكنة الكهوف... عمّي إدموندو أراني صورة في مجلّة. كان هناك قردٌ كبير كثيف الشعر مع هراوة في يده. un troglodyte... إنّه شخصٌ عاش في العصور الغابرة، في بداية العالم، يعيش في كهوف نم ... نم... نم أو لا أدري ماذا. لم أتمكن من حفظ الاسم عن ظهر قلب، لأنه كان اسمًا أجنبيًّا، معقّدًا جدًّا.

- ما كان للعمّ إدموندو أن يحشو رأسك بكلّ هذا الكلام الفارغ. إذن، هل ستقرضني إيّاها؟

- لا أعرف ما إذا كانت لديّ...

- بففف!... زيزا، عندما تذهب لتلميع الأحذية ولا تكسب شيئا، أتقاسم معك ما أملك، أليس كذلك؟ وعندما تكون مرهقًا، أحمل عنك صندوقك، إذن...

كان هذا صحيحًا. من النادر أن يكون توتوكا شرّيرًا معي. كنتُ أعلم بأن الأمر سينتهي بي بأن أقرضه إيّاها.

«إذا ما أقرضتني إياها؟ سأخبرك بأمرين في غاية الأهميّة».

لزمت الصّمت.

-سأقول لك بأن شجرة برتقالك الصغيرة أجمل من شجرتي.

-سبق وأن قلته.

وضعتُ يدي داخل جيبي وحرّكت القطع النقدية.

-والأمران الآخران؟

-تعرف، زيزا، بؤسنا سينتهي قريبًا، وجد أبي وظيفة مدير في مصنع سانتُو أليكسيُو. سنصبح أثرياء من جديد. ألست مسرورًا؟

-بلى! طبعًا، أنا مسرور لأجل أبي. لكنني لا أريد مغادرة بانجو. سأبقى مع ديندينيا. لن أغادر إلاّ لتراس-أوس-مونتيس...

- فهمت. تفضّل البقاء مع ديندينيا وتلقّي ضرباتٍ كلّ شهرٍ على أن ترافقنا؟

-أجل. ولن تعرف أبدًا لماذا... والأمر الثاني؟

- لا أستطيع التكلّم هنا. هناك شخص يجب ألاّ يسمع.

ذهبت معه قرب الكوخ. وبالرغم من هذا الاحتياط، تكلّم بصوت منخفض:

«يجب عليّ تحذيرك، زيزا. كي تعتاد على الأمر. ستُوسّع البلدية الشوارع. سيسدّون كلّ القنوات ويستحوذون على الجزء الخلفيّ من الحديقة».

-وما تأثير ذلك؟

-لم تفهم وأنت الذكيّ جدًّا؟ لتوسيع الشارع سيزيلون كل ما يوجد هنا.

أراني موقع جذع شجرة برتقالي الحلو. كنتُ على وشك البكاء.

-أنت تكذب، أليس كذلك، توتوكا؟

-ما من داع لتبدُو هكذا. سيحتاجون وقتا للقيام بهذا.

كانت أصابعي تعدّ القطع بعصبيّة داخل جيبي.

-هذا غير صحيح، أليس كذاك، توتوكا؟

-بلى! إنها الحقيقة الخالصة. لكنّك رجل، أليس كذلك؟

-بلى!

لكنّ الدموع انسابت دون خجل على وجنتيّ. تشبّثتُ ببطنه، متوسّلاً.

-ستكون معي، توتوكا؟ سأجد الكثير من الناس للقيام بالحرب. لا أحد سيقطع شجرة برتقالي الصغيرة...

-لا عليك. لن نسمح لهم بالقيام بهذا. والآن هل تقرضني المال؟

-ماذا ستفعل به؟

-بما أنك لا تستطيع الدخول إلى سينما بانجو... سيعرضون فيلم طرزان. سأرويه لك لاحقًا.

أخذت قطعة من فئة الخمسمائة رايس وأعطيتها إيّاه وأنا أمسح عينيّ بطرف قميصي.

«احتفظ بالكلّ. واشترِ حلوَى..».

عدتُ إلى جذع شجرة برتقالاتي الحلوة. لم تكن لديّ رغبة في الكلام، عاودتُ التفكير في فيلم طرزان. سبق وأن رأيته بالأمس.

كنت قد حدثتُ بروتوجا عنه.

-هل تريد أن تذهب لمشاهدته؟

-أتمنّى ذلك، لكنّني لا أستطيع الدخول لسينما بانجو.

تذكّر السبب. وضحك.

-ألا تبتكر شيئا في عقلك الصغير؟

-أقسم لك، بأن لا، بورتوجا. لكنني أظن بأنهم لن يقولوا شيئًا، إذا ما اصطحبني شخص راشد.

-وإذا ما كان هذا الشخص أنا... أليس هذا ما تريد؟

أشرق وجهي من الفرح.

-لكن عليّ أن أعمل، يا صغيري.

-في مثل هذه السّاعة لا وجود لشخص في أيّ مكان. بدل البقاء للثرثرة أو أخذ قيلولة داخل السيارة، تعال لرؤية طرزان يصارع الفهود والتماسيح والغوريلا. هل تعرف من يقوم بالدور؟ إنه فرانك ميريل».

لكنّه لم يحسم أمره بعدُ.

-أنت شيطان صغير. لديك حِيلٌ لكلّ شيء.

-مدّته ساعتان فقط. أنت الآن ثريٌّ جدًّا، بورتوجا.

-حسنًا، لنذهب. لكننا سنذهب سيرًا على الأقدام. سأترك السيّارة مركونةً حيث هي.

وذهبنا. لكن الفتاة الشابة في شباك التذاكر قالت بأن لديها أمرًا

رسميًّا بعدم السماح لي بالدخول طيلة سنة.

«أتحمّل المسؤولية. هذا الأمر كان في السّابق أما الآن فقد أصبح ولدا عاقلاً».

نظرت إليّ الموظفة فابتسمتُ لها. طبعتُ قبلة على طرف أصابعي وأرسلتها إليها على الهواء.

-اصغ إليّ، زيزا. إذا ما تصرّفت بطريقة سيّئة، فسأفقد عملي.

كان هذا ما لم أكن أرغب في أن أحكيه لمينجوينهو. لكنني لم أتمالك طويلا وانتهى الأمر بي أن رويته له.

7
المانجاراتيبا

عندما سألت دونا سيسيليا بايم ما إذا كان هناك أحد يريد التوجه إلى لوح الكتابة ليكتب جملة، جملة يكون قد ابتكرها بنفسه، لم يتحرّك أي تلميذ. أنا، فكرّتُ في شيء ورفعتُ إصبعي.

«هل تريد المجيء، زيزا؟».

غادرتُ طاولتي وتوجهت نحو السبورة السوداء، فخورًا بسماعها تضيف:

«هل ترون! إنّه أصغرُ واحد في الفصل».

لم يكن طولي يصل إلى منتصف السبورة السوداء. أخذتُ الطباشير وكتبتُ باجتهاد: «في غضون بضعة أيام، سنكون في عطلة».

نظرتُ إليها لأعرف هل هناك خطأ.

ابتسمت، كانت سعيدةً. وفوق الطاولة كان هناك الكأس فارغًا. فارغًا، لكن مع الزهرة الخيالية مثلما قالت. ربما لأن الدونا سيسيليا بايم لم تكن جميلة بما يكفي وبالتالي لم تكن تتلقّى الزهور من أحدٍ.

عدتُ إلى طاولتي، مسرورًا بجملتي. ومسرورًا أيضًا لأنني سأقوم بالعديد من النزهات رفقة بورتوجا أثناء العطلة.

فيما بعد، عزم آخرون على كتابة جمل. لكنّ البطل، ظلّ أنا.

أحدهم طلب الإذن بالدخول إلى الفصل. كان متأخّرًا. إنّه جيرونيمو. وصل مضطربًا جدًّا وجلس خلفي مباشرة. وضع كتبه محدثًا ضوضاء وشرح أمرًا مّا لجاره. لم أعر الأمر اهتمامًا. لكنّ كلمة من الحديث الذي كان يدور بينهما بصوت منخفض لفتت انتباهي. كان يتحدث عن المانجاراتيبا.

-هل اصطدم بالسيّارة؟

-أجل السيّارة الكبيرة للسنيور مانويل فالداريس؟

مكبّلاً بالذعر، استدرتُ.

-ما الذي تقوله؟

-أقول بأن المانجاراتيبا اصطدم بسيارة البرتغالي عند تقاطع الطرقات في شارع الهنديات. بسبب هذا وصلتُ مُتأخرًا. حوّل القطار السيارة إلى فُتات. يوجد الكثير من الناس. حتى أنهم اتصلوا بإطفائيين من رايلينجو».

بدأت أتعرّق وتشوّشت عيناي. واصل جيرونيمو الإجابة عن أسئلة جاره.

«لا أعرف ما إذا مات. لم يسمحوا للأطفال بالاقتراب».

نهضت من دون أن أنتبه. سيطرت عليّ رغبة في التقيّؤ وغطّى جسمي عرق بارد. تركت مقعدي وسرتُ نحو الباب. حتى أنني لم ألاحظ وجه دُونا سيسيليا بايم التي كانت قد اقتربت مني، مرتعبةً دون شك من شحوبي.

«ماذا هناك، زيزا؟».

لكنني لم أستطع الإجابة. اغرورقت عيناي بالدموع. وعندئذٍ، فقدتُ عقلي تماما، بدأت في الركض، ودون التفكير في مكتب المديرة، واصلتُ الركض. وصلت إلى الشارع ونسيتُ طريق ريو-ساو-باولو، نسيتُ كلّ شيء. لم أفكّر إلاّ في الركض، الركض والوصول إلى هناك. كان قلبي يؤلمني أكثر من معدتي وركضتُ على امتداد شارع الهنديات من دون أن أتوقف. وصلتُ عند مستوى محلّ الحلويّات، ألقيت نظرة على السيارات لأتأكّد بأنّ جيرونيمو لم يكن يكذب. لكن سيّارتنا لم تكن هناك. أطلقتُ أنينًا وعاودتُ الجري. أوقفتني الذراعان القويتان لسنيور لاديسلو.

«إلى أين زيزا؟».

كانت الدموع تنهمر على وجهي.

قاومتُ مثل مجنون دون أن أتمكن من التحرّر من ذراعيه.

هدئ نفسك، يا صغيري. لن أسمح لك بالذهاب إلى هناك.

- إذن، المانجاراتيبا قتله...

- لا. سبق وأن وصلت سيّارة الإسعاف. فقط السيارة، تضرّرت كثيرا.

- أنتم تكذبون، سنيور لاديسلو.

- لماذا سأكذب؟ ألم أقل لك بأن القطار قد سحق السيارة؟ عندما يستطيع استقبال الزّوار في المستشفى، سأصطحبك، أعدك بهذا. الآن، تعال اشرب شيئًا مّا.

أخذ منديلا وجفّف عرقي.

«أحتاج للتقيّؤ قليلاً».

اتكأتُ على الحائط وسند جبيني.

«هل تحسّنت حالك، زيزا؟».

أشرتُ بإيمائة من رأسي أن نعم.

«سأصطحبك إلى بيتكم، هل تريد؟».

أشرتُ أن لا، وابتعدتُ وأنا أسير ببطء، تائهًا تمامًا. كنت أعرف الحقيقة كاملة. المانجاراتيبا لا يرحم أبدًا. كان القطار الأقوى في الوجود. تقيأت مرتين إضافتين ورأيت بأن لا أحد يهتمّ بعدُ بأمري. لم يعد يوجد أي انسان في العالم. لم أعد إلى المدرسة، ذهبتُ إلى حيث قادني قلبي. ومن وقت إلى آخر كنت أنفجر بكاءً وأمسحُ وجهي بصدريّة زيّي المدرسي. لن أرى بعد اليوم أبدًا بورتوجا. أبدًا، لقد رحل. ومشيتُ، مشيتُ. توقفتُ عند الطريق حيثُ سمح لي بأن أناديه بورتوجا وسمح لي بالقيام بلعبة الخفاش. جلستُ على جذع شجرة وانطويتُ على نفسي، واضعًا جبيني على رُكبتيّ.

اندلعت داخلي فجأةً ثورة عنيفة.

«أنت شرير، يا يسوع الصغير. وأنا الذي فكرّتُ، هذه المرّة، بأنك ستولد إلها لأجلي، وتفعل بي هذا؟ لماذا لا تحبني مثلما تحب الأطفال الآخرين؟ لقد كنتُ ولدا عاقلا. لم أتعرّض للضرب، حفظتُ دروسي، لم أتفوّه بكلمات نابية، ولا حتى كلمة مؤخرة. لماذا فعلت بي هذا، يا يسوع الصغير؟ سيقطعون شجرة برتقالي

الصغيرة ولم أغضب. فقط بكيتُ قليلاً...والآن...والآن..».

سيل جديد من الدموع.

«أريد أن يعود بورتوجا، يا يسوع الصغير. يجب أن تعيد لي بورتوجا..».

عندئذٍ تحدّث إلى قلبي صوت في منتهى العذوبة والحنان. لا شكّ أنّه الصوت الحنون للشجرة التي كنت جالسًا عندها.

«لا تبكِ، أيّها الطفل الصغير. إنه في السماء».

عند قدوم الليل، كنت خائر القُوى، عاجزًا حتى عن التقيؤ مرة إضافية أو البكاء. وجدني توتوكا جالسًا على عتبة أمام بيت دونا هيلينا فيلاس-بُوواس.

تحدّث إليّ فأجبت بأن أطلقت تنهيدة.

«ما بك، زيزا؟ كلّمني».

لكنني واصلت التأوّه بصوت منخفض. وضع توتوكا يده فوق جبيني.

«حرارتك مرتفعة جدًّا. ما بك، زيزا؟ تعال معي، لنذهب إلى المنزل. سأساعدك على المشي بلطف».

تمكّنت من القول بين أنّتين:

«دعني، توتوكا. لن أذهب إلى ذلك البيت بعد الآن».

- بلى، تعال. إنه بيتنا.

- لم يعد لي بيت. انتهى كل شيء.

حاول مساعدتي لكنه انتبه إلى أنني خائر القوى تمامًا.

مرّر ذراعيّ حول عنقه ورفعني. عاد إلى المنزل ومدّدني على سريري.

«جانديرا! جلوريا! أين أنتما؟».

وجد جانديرا تُثرثر في بيت الجيران.

«جانديرا، زيزا مريض جدًّا».

جاءت وهي تتبرّم.

«من المؤكد أنها مسرحيّة أخرى. صفعة جيدة على مؤخرته..».

لكن توتوكا كان قد دخل إلى الغرفة، قلقًا جدًّا.

«لا، جانديرا. هذه المرة هو مريض جدًّا وسيموت..».

قضّيتُ ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ دون رغبة في تناول أيّ شيء. التهمتني الحُمّى وسيطر عليّ الغثيان كلما أرادوا إعطائي شيئًا لشربه أو أكله. أصبحتُ نحيلًا، نحيلًا. كنت انظر إلى الحائط، من دون أن أتحرّك، طيلة ساعات وساعات.

كنت أسمعهم يتحدثون من حولي. كنت أفهم كل شيء، لكنني لم أكن أرغب في الإجابة. لم أرغب في الكلام. لم أكن أفكّر إلاّ في الصعود إلى السّماء.

غيّرت جلوريا غرفتها وأصبحت تقضي لياليها قربي. لم تكن تسمح بإطفاء النور. كان الجميع طيبين جدًّا. حتى ديندينيا جاءت لقضاء بضعة أيّام معنا.

ظلّ توتوكا هنا ساعات وساعات بعينين مُتسعتين، كان يُحدثني من وقت إلى آخر.

«هذا ليس صحيحًا، زيزا. يجب أن تصدّقني. لقد قلت هذا بدافع الشرّ. لن يُوسعوا الشارع، ولا هم يحزنون..».

كان البيتُ مُغلّفًا بالصمت، وكأن للموت خطوات من المخمل. لم يكن أحد يصدر ضجة. تكلّم الجميع بصوت منخفض. وظلّت أمي طيلة اللّيل تقريبًا بالقرب مني، فيما كنتُ أفكّر فيه. في قهقهته، وطريقته في الكلام. حتّى الصراصير في الخارج، قلّدت الصوت الذي يحدثه عندما كان يحلق لحيته. لم أستطع التوقف عن التفكير فيه. الآن، عرفتُ فعلاً ما الذي يعنيه الألم. الألم، ليس في تلقّي الضرب حتى الإغماء. وليس في انغراز قطعة من الزجاج في إحدى قدميك تستوجب نقلك إلى الصيدلية لرتق جرحك. الألم، هو هذا الشيء الذي يحطّم قلبك، الألم هو الموت من دون القدرة على البوح بسرّنا لأيّ كان. إنه ألم يشلّ ذراعيك، وفكرك، ويجعلك غير قادر على إدارة رأسك على المخدّة.

كانت أوضاعي تزيد سوءًا. ثقبت عظامي جلدي. قاموا باستدعاء طبيب. جاء الدكتور فُوليابير وفحصني. ولم يتأخر في التشخيص:

«إنها صدمةٌ. صدمة عنيفةٌ. لن يعيش إلاّ إذا استطاع تجاوز هذه الصدمة».

خرجت جلوريا مع الطبيب وشرحت له:

«إنها فعلاً صدمة، أيّها الطبيب. منذ علم بأنهم سيقطعون جذع

شجرة برتقاله الحلو، أصبح على هذه الحال».

- إذن، يجب إقناعه بأن هذا غير صحيح.

- سبق وأن حاولنا بكلّ الطرق، لكنه لم يصدّق. فشجرة البرتقال بالنسبة إليه هي إنسان. إنه طفلٌ غريبٌ جدًّا، حسّاسٌ جدًّا، وناضج قبل الأوان.

سمعتُ كل شيء وواصلتُ رفضي للحياة. كنت أريد الذهاب إلى السماء، لا أحد يذهب إليها وهو حيٌّ.

أحضروا أدوية، لكنني واصلت التقيّؤ.

عندئذٍ حدث أمرٌ جميل جدًّا. كلّ الشارع تحرّك للقدوم لرؤيتي. تم نسيان أنني كنتُ الشيطان مُجسّدًا. سنيور «بؤس ومجاعة» أحضر لي كعك «*ماريا-مول*». والنيجا يوجينيا جلبت لي بيضًا وتلت صلوات فوق بطني كي أتوقف عن التقيّؤ.

«ابن السنيور باولو يحتضر..».

كانوا يقولون لي أمورًا رائعة.

«يجب أن تُشفى بسرعة، زيزا. من دونك ومن دون شيطنتك، الشارع كئيب».

جاءت دونا سيسيليا بايم لرؤيتي، جلبت لي محفظتي وزهرة. الأمر الذي أثّر فيّ وجعلني أبكي.

روت كيف رأتني أخرج من الفصل، هذا كلّ ما تعرف.

لكن المحزن، هو عندما ظهر سنيور أريُوُوفالدو. تعرّفتُ على صوته وتظاهرتُ بالنّوم.

«انتظروا هنا حتى يستيقظ، سيّدي».

جلس وبدأ في الحديث مع جلوريا.

«اسمعوني، دُونا، لقد ذرعت الحيّ السكني كلّه مستفسرًا عن البيت حتى وجدته».

بكى طويلاً.

«قدّيسي الصغير لا يمكن أن يموت، لا. لا يجوز التخلّي عنه، دُونا. ألم يكن يحمل أغانِيّ إليكم؟».

تمكّنت جلوريا من الردّ بشقّ الأنفس.

«لا يجوز أن تتركوا هذا الولد الصغير المسكين يموت. لو حدث له مكروه، لن أعود أبدًا إلى هذه الضاحية الملعونة..».

عندما دخل إلى الغرفة، جلس بالقرب من السرير وترك يده على خدّي.

«اسمع، زيزا. يجب أن تُشفى وتعود إلى الغناء معي. لم أبع شيئًا تقريبًا. كلّ النّاس يسألون: «إيه! أريووفالدو، أين هو كناريك الصغير؟» هل تعدني بأن تُشفى، هل تعدني؟».

اغرورقت عيناي بالدّموع غصبًا عنّي. وعندما رأت جلوريا هذا، قامت بإخراج سنيور أريوُوفالدو لأنه كان عليّ أن لا أتعرّض للانفعالات.

بدأتُ أتحسّن. تمكّنتُ أخيرًا من ابتلاع بعض الطعام والاحتفاظ به في معدتي. لكنني حين أفكّر في الأمر من جديدٍ، ترتفع حرارتي وتعاودني حالات الغثيان مُصحوبة بارتعاشات وبموجات عرق

بارد. أحيانًا، لم أكن قادرًا عن التوقف عن رؤية المانجاريتبا يقفز ويسحقه. كنت أسأل اليسوع الصغير عمّا إذا كان قد أحسّ بشيء مّا.

جاءت جلوريا ووضعت يدها فوق جبيني.

«لا تبكِ، «جُوم». سينتهي كلّ شيء. إذا شئتَ، يمكنني أن أعطيك شجرة المانجو التي أملكها لك أنت فقط. لن يمسّها أحد سواك أبدًا».

لكن بماذا ستفيدني شجرة مانجا هرمة من دون أسنان، غير قادرة على إعطاء ثمار؟ بل إنّ جذع شجرة برتقالي الحلوة، سيفقد قريبًا قدرته السحرية وسيصبح شجرة مثل البقية. هذا إن تركوا له الوقت، المسكين.

كم كان من السهل الموت بالنسبة إلى البعض. يكفي أن يأتي قطار ملعون، لينتهي كلّ شيء. لكن بالنسبة إليّ، كم كان من الصعب الذهاب إلى السماء. الجميع أمسكوا بقدميّ كي يمنعوني من الذهاب.

نجحت طيبة جلوريا وتفانيها في جعلي أتكلّم قليلاً. حتّى أبي توقف عن الخروج في المساء. وأصيب توتوكا بالنحول، من الندم، إلى درجة أن جانديرا انتهى بها الأمر بتوبيخه:

-ألا يكفي واحد، أنطونيو؟

-لستِ محلّي كي تشعري بما أشعر به. إنه أنا من أبلغه بالأمر. حتى عندما أنام، أشعر به وهو يبكي فوق بطني، لكنّه يبكي...

- أستبكي أنت أيضًا، الآن. أنت ولد كبير. وسيعيش. اذهب واشترِ لي علبة من الحليب المُركّز من «بؤس ومجاعة».

- إذن أعطني نقودًا، لم يعد يبيع بالدين لأبي.

كان الوهن يغرقني في نوم متواصلٍ. لم أعد أميّز بين اللّيل والنهار. انخفضت الحُمّى وبدأت موجة ارتعاشاتي تتباعد. كنت أفتح عينيّ وفي العتمة أجد جلوريا التي لم تكن تبتعد عني. فقد أحضرت الكرسي الهزّاز إلى الغرفة وغالبًا ما تنام عليه من التعب.

-جُودويا، هل حلّ المساء؟

-إنّه المساء تقريبًا، يا قلبي.

-هل تريدين فتح النافذة؟

-ألا يسبّب لك هذا آلامًا في رأسك؟

-لا أظنّ.

تسلّل الضوء وكان بالإمكان رؤية جزء من السماء الزرقاء.

نظرتُ إلى السماء وانخرطتُ في البكاء.

«ما هذا، زيزا؟ سماء بكلّ هذا الجمال، خلقها يسوع الصغير لأجلك... لقد أخبرني بهذا هذا الصباح..».

لم تدرك ما الذي تمثّله السماء بالنسبة إلي.

اقتربت منّي، أخذت يديّ في يديها وتكلّمت محاولة مواساتي. كان وجهها شاحبًا ومرهقًا.

«تعرف، زيزا، قريبا ستتحسن. ستطلق طائرات ورقيّة، ستربح جبالًا من الكريات، ستتسلّق الأشجار، ستمتطي الحصان فوق مينجوينهو. أريد رؤيتك وقد عدت كما كنت، مُغنيًا، تحمل إليّ

الأغاني، وكلّ تلك الأشياء الرائعة. لقد رأيت كم كان الناس في الشارع حزانى. الجميع مُشتاق إلى حيويّتك، مرحك...لكن يجب عليك أن تقوم بمجهود. أن تحيا، تحيا وتحيا».

- ترين، جُودويا. لم أعد أرغب في كلّ هذا. إذا ما تعافيتُ، فسأكون شرّيرًا من جديد. لا تستطيعين أن تفهمي. لكن لم يعد لديّ من يستحقّ أن أكون ولدًا عاقلًا إرضاءً له.

- لست في حاجة لأن تكون عاقلاً إلى هذه الدرجة. كن طفلًا، كن الولد الصغير الذي طالما كنته.

- للقيام بماذا، جودويا؟ كي يضربني الجميع؟ كي ينهرني الجميع؟..

أخذت وجهي بين يديها وتكلّمت بصوت حاسم:

«اسمع، جُوم. أقسم لك بشيء. عندما تتحسن، لن يمسّك أحد بسوء ولو كان الله. يجب أن يمرّوا أوّلا فوق جثّتي. هل تصدّقني».

أيّدتها بأن أطلقت همهمة.

«ما الذي تعنيه كلمة، جُثّة؟».

أنار فرحٌ غامرٌ وجه جلوريا لأوّل مرّة.

انخرطت في الضحك، كانت تعرف أنّ اهتمامي بالكلمات المُعقّدة، علامة على أنّني بدأت أرغب في العيش من جديد.

«جثة، مرادف لكلمة ميّت، ومرحوم. لكن لنؤجل الحديث عن هذا الآن، ليس هذا الوقت المناسب».

رأيتُ بأن من الأفضل أن لا نتحدث عن هذا، لكنني لم أتوقف عن التفكير في أنه قد أصبح جثّة منذ أيام. واصلت جلوريا الكلام، واعدةً إيّاي بأشياء، لكنّني كنت قد بدأت أفكّر في العصفورين، الكاناري وطائر الهزار أزرق العنق. ما الذي فعلوه بهما؟ ربما سيموتان من الحزن، مثلما حصل للطائر المغرّد الخاص بأورلاندُو كبيلو دي فوجو. ربّما فتحوا أبواب الأقفاص كي يحرّروهما. لكن فعلة كهذه تعني موتهما المحتّم. لقد نسيا الطيران. سيظلاّن ثابتين بغباء فوق أشجار البرتقال إلى أن يصطادهما الأطفال بمقاليعهم. عندما لم يعد زيكُو يمتلك نقودًا للاحتفاظ بالبيت الكبير لطيوره القرمزية، فتح الأبواب وحصلت مجزرة. ما من عصفور أفلت من حجارة الصغار...

بدأت الأمور في العودة إلى نصابها في البيت. سُمِع من جديد ضجيج في كلّ مكان. وعادت أمي إلى العمل. استعاد الكرسيّ الهزّاز مكانه المُعتاد في قاعة الجلوس. جلوريا وحدها ظلّت في وظيفتها. فطالما لم ترني واقفا على قدميّ، لن تبتعد.

«اشرب من الحساء، جُوم. جانديرا ذبحت الدّجاجة السّوداء عمدًا كي تعدّ لك الحساء. استنشق كم رائحته شهيّة».

ونفخت على الملعقة.

«إذا أردت، افعل مثلي، اغمس خبزك في قهوتك. لكن لا تصدر صوتًا وأنتَ تشرب. هذا بشع».

«هيّا» جُوم، ماذا هناك؟ لن تبكي الآن لأننا ذبحنا الدجاجة السوداء. كانت عجوزًا. عجوزًا حتّى أنها لم تعد تبيض...

«انتهى بك الأمر إلى اكتشاف أين أسكن».

- أعرف بأنها كانت الفهدة السوداء في حديقة الحيوانات، لكننا سنشتري فهدة أخرى سوداء متوحّشة أكثر من هذه.

«إذن، أيها الهارب الصغير، أين ذهبت، طيلة هذا الوقت؟».

- جودويا، ليس الآن إن تناولته فسيعاودني التقيّؤ.

- إذا ما قدّمته لك لاحقًا، هل ستشربه؟

عندئذٍ، انفلتت الجملة من فمي من دون أن أتمكن من السيطرة عليها:

«أعدك بأنني سأكون ولدا عاقلاً، ولن أتعرّض إلى الضرب بعد الآن، ولن أتفوّه بكلمات نابية بعد الآن، بما في ذلك كلمة مؤخرة...لكنني أريد أن أبقى دائما قربك..».

نظروا إلي بشفقة لأنهم اعتقدوا بأنني أتحدث مُجدّدا مع مينجوينهو.

في البداية كان هناك صوت أشبه بالحفيف على النافذة، ثمّ تحوّل إلى ضربات على باب. وإذا بصوت في منتهى العذوبة آت من الخارج:

«زيزا!..».

نهضتُ وأسندتُ رأسي إلى خشب النافذة.

-من؟

-أنا. افتح.

فتحتُ النافذة دونَ إثارةِ ضجّةٍ كي لا أوقظ جلوريا. في العتمة، كان هذا يشبه معجزة، رأيتُ مينجوينهو رافلًا في زينته وهو يتوهّج.

-هل أستطيع الدخول؟

- تستطيع، بكل تأكيد. لكن لا تحدث ضجّة، يمكنها أن تستيقظ.

- أؤكد لك بأنني لن أوقظها.

قفز داخل الغرفة وعدتُ إلى سريري.

«انظر من أحضرت لك، لقد حرص على زيارتك أيضا».

بسط ذراعه ورأيتُ عصفورًا فضيًا.

-لا أرى جيّدًا، مينجوينهو.

-انظر جيّدًا. سترى مفاجأة. لقد زيّنته بأكمله بريش من الفضّة. إنه جميل، أليس كذلك؟

-لُوسيانُو! كم أنت جميل. يجب أن تكون دائمًا هكذا. كنت أعتقد بأنّك صقر كالذي ذكر في حكاية كاليف ستورك.

داعبتُ رأسه بانفعال، وشعرتُ للمرّة الأولى بأنه كان ناعمًا جدًّا وبأن الخفافيش يحبون الحنان أيضًا.

«هناك أمر آخر لم تلاحظه بعد. انظر جيّدًا».

وقام بنصف دورة حول نفسه.

«لديّ مهمازا طوم ميكس، قبّعة كين ماينار، ومسدّسا فريد طومسون الاثنان، الحزام والحذاء الخاصّان بريتشارد تالمادج. وبالإضافة إلى هذا، أعارني سنيور أريوُوفالدو القميص ذا المربعات الذي تحبّه كثيرا».

- لم يسبق لي أن رأيت شيئًا بكلّ هذا الجمال، مينجوينهو. كيف فعلت لتجد كل هذا؟

- كان يكفي بأن يعرفوا أنّك كنت مريضًا لكي يعيروني إيّاها.

- يا للأسف كونك لا تستطيع أن تظلّ مكسُوًّا بهذه الطريقة.

نظرتُ إلى مينجوينهو مُتسائلاً ما إذا كان يعرف المصير الذي ينتظره. لكنني لم أقل شيئًا. جلس على حافة السرير وفاضت عيناه بالرقّة والقلق. قرّب وجهه من وجهي.

-ماذا هناك، كزورووركا؟

-لكن كزورووركا، هو أنتَ، مينجوينهو.

-حسنًا. إذن أنتَ، هو كزووركو. لا أستطيع أن أعبّر لك جيّدًا عن حناني إلا باستعمال الكلمات التي تستعملها لأجلي.

- لا تتحدث هكذا. لقد منعني الطبيب من البكاء والتعرض للانفعالات.

- ليس هذا ما أبحث عنه، على العكس. لقد جئتُ لأنني أفتقدك كثيرًا ولأنني أريد رؤيتك من جديد مبتهجًا وفي صحّة جيّدة. في الحياة، كل شيء يمرّ. لقد جئت كي أصطحبك في جولة. هل تأتي؟

- أنا ضعيف جدًّا.

- القليل من الهواء النظيف سيجعلك أحسن. سأساعدك على القفز من النافذة.

وخرجنا.

-إلى أين سنذهب؟

-سنذهب لنتجوّل فوق القنوات.

-لكنني لا أستطيع المرور عبر شارع البارون دي كابانيما. لا أريد أن أمرّ من هناك أبدًا.

- إذن، سنواصل المشي حتى شارع الإيكليس».

تحوّل مينجوينهو إلى حصان يشق الهواء. وكان لوسيانو متوازنًا فوق كتفي.

عند شبكة القنوات، أمسك بي مينجوينهو من يدي كي أحافظ على توازني فوق الأنابيب الضخمة. كان هذا رائعًا. عندما يكون هناك ثقب، كان الماء ينبثق مثل نافورة صغيرة، تبلّلنا وتدغدغ باطن أقدامنا.

كنتُ أشعر بأنني مصاب بالدوار قليلاً، لكن العافية التي بثّها فيّ مينجوينهو أعطتني الانطباع بأنني على ما يُرام. على الأقل، كان قلبي ينبض بطريقة طبيعيّة، من دون قلق.

فجأة، تردّد صوت صافرة من بعيد.

-هل سمعت، مينجوينهو.

-إنها صافرة قطار.

لكن ضجّة غريبة كانت تقترب فيها شقّت صفّارات جديدة الصمت.

كبّلني الرعب.

«إنه هو، مينجوينهو. المانجاراتيبا. القاتل».

وازداد ضجيج العجلات على السكك الحديدية بطريقة مرعبة.

«اصعد هنا، مينجوينهو. اصعد بسرعة، مينجوينهو».

لم يتمكن مينجوينهو من الاستقامة فوق الأنبوب بسبب مهمازيه البرّاقين.

«اصعد، مينجوينهو. أعطني يدك. إنه يريد قتلك. يريد سحقك. يريد تحويلك إلى فُتات».

وما إن صعد مينجوينهو فوق الأنبوب حتّى مرّ القطار الملعون بالقرب منا مُطلقًا صفّارته ونافخًا دخانًا أسود.

«قاتل!...قاتل!..».

وواصل القطار سيره على السكّة الحديدية بسرعة قصوى. وتناهى إلينا صوته، تتخلّله قهقهات.

«ليس هذا خطئي... ليس هذا خطئي... ليس هذا خطئي... ليس هذا خطئي..».

أضيئت أنوار البيت كلّها واقتحمت غرفتي وجوه نصف نائمة.

«كان هذا كابوسًا».

أخذتني أمّي بين ذراعيها.

«لم يكن هذا سوى حلمٍ، يا صغيري، كابوس..».

عاودتُ التقيّؤ بينما كانت جلوريا تحدّث لالا:

«استيقظتُ حين كان يصرخ: «قاتل» كان يتحدث عن القتل، والسّحق، والتحويل إلى فُتات...يا إلهي، متى ينتهي كل هذا؟».

بعد مضيّ بضعة أيّام، انتهى كلّ شيء. كان محكومًا عليّ بأن أحيا، أحيا. ذات صباح، دخلت جلوريا، مشرقةً. كنتُ جالسًا في فراشي وأتأمّل الحياة بحزن لا حدود له.

«انظر، زيزا».

كانت تمسك بين أصابعها زهرة صغيرة بيضاء.

«إنها أول زهرة لمينجوينهو .قريبًا، سيصبح شجرة برتقال راشدة وسيبدأ في إعطاء حبّات البرتقال».

داعبتُ الزهرة البيضاء. لن أبكي بعد الآن لأيّ سبب كان، حتى لو كان مينجوينهو يريد أن يقول لي وداعا من خلال هذه الزهرة، إنه يغادر عالم أحلامي إلى عالم الواقع وعالم ألمي.

«الآن سنأكل القليل من البطاطا المهروسة ونقوم بجولة صغيرة داخل البيت مثلما فعلنا البارحة. سآتي فورًا».

عندئذٍ صعد الملك لويس فوق سريري. أصبحوا الآن يسمحون له بالاقتراب مني. وكانوا في البداية يمنعونه من ذلك حتّى لا يتأثر.

-زيزا!...

– ماذا هناك، يا ملكي الصغير؟

كان هو بالفعل، الملك الوحيد. الآخرون، ملك القلوب، الملك البستونيّ، ملك النفل (ملك السِباتي)، ملك الماس، لم يكونوا سوى

صور متّسخة بأصابع اللاعبين. والآخر، هو الذي لم يتمكن من أن يكون حقًّا ملكًا.

-زيزا، أنا أحبّك كثيرًا.

-أنا أيضا، يا أخي الصغير.

-هل تريد أن تلعب معي، اليوم؟

-أجل، سألعب معك، اليوم. ما الذي تريد فعله؟

-أريد الذهاب إلى حديقة الحيوانات، ثمّ أريد الذهاب إلى أوروبا. وإلى غابات الأمازون واللعب مع مينجوينهو.

-إذا لم أكن متعبًا جدًّا، سنقوم بكلّ هذا.

بعد تناولنا القهوة، غادرنا محفوفين بنظرات جلوريا السعيدة نحو الجزء الخلفي للحديقة اليد في اليد. قبل وصولنا إلى قنّ الدجاج، استدرتُ وودّعتها بإشارة من يدي. كانت السعادة تتجلّى في عينيها. وبفضل نضجي المبكّر الغريب، خمّنتُ ما كان يجول في قلبها: «لقد عاد إلى أحلامه، شكرا يا إلهي!

-زيزا...

-امم.

-أين هي الفهدة السوداء؟

كان من الصعب أن نبدأ كل شيء من جديد دون الإيمان بالأشياء. كانت لديّ رغبة في أن أخبره بما كان موجودًا حقًّا: «أيها الأحمق الصغير، لم توجد قط فهدة سوداء. لم تكن سوى دجاجة

سوداء عجوز وقد أكلتُها في حساء».

«لا يوجد سوى أسدين، لويس. أمّا الفهدة السوداء فقد ذهبت لقضاء عطلة في غابات الأمازون».

كان من الأفضل أن أُبقي على أوهامه أطول فترةٍ ممكنة. عندما كنتُ صغيرًا، كنتُ أنا أيضا أؤمن بهذه الأمور. فتح الملك الصغير عينيه على وسعهما.

-هنا، في هذه الغابة؟

-لا تخف. لقد غادرت بعيدًا جدًّا، لن تجد أبدا الطريق كي تعود.

ابتسمتُ بمرارة. كانت غابة الأمازون عبارة عن نصف دزينة من أشجار برتقال شائكة وعدائيّة.

«أتعرف، لويس، زيزا ضعيف جدًّا، يجب أن نعود. غدًا سنلعب بشكل أفضل. سنلعب لعبة تلفريك «خبز السكر» وكل ما ترغب فيه من الألعاب الأخرى».

وافق بإيماءة من رأسه وعاد ببطء معي. مازال صغيرًا جدًّا كي يكتشف الحقيقة. لم أكن أرغب في الذهاب قريبًا من مجرى ريُو الأمازون. لم أرغب في تأمل مينجوينهو وقد فقد قدرته السحرية.

لويس لم يكن يعرف بأن تلك الزهرة البيضاء كانت وداعنا.

8

يوجد الكثير من الأشجار الهرمة

لم يكن اللّيل قد حلّ بعدُ عندما تأكّد الخبر. بدا وكأن سحابة بيضاء قد عادت وهي تحوم فوق بيتنا وعائلتنا.

أخذني بابا من يدي، وأمام الجميع، أجلسني فوق ركبتيه. تأرجح ببطء على كرسيّه الهزاز كي لا أصاب بالدُوار.

«انتهى كل شيء، يا صغيري. كل شيء. ذات يوم حين تُصبح أبًا بدورك ستكتشف كم توجد أحيانًا لحظات صعبة في حياة رجل. حيث يبدو وكأنه لا شيء سينجح، وهذا يُسبّب يأسًا فظيعًا. لكن الآن، انتهى هذا الأمر. لقد تم تعيين بابا مديرًا لمصنع سانتُو أليكسيُو. ولن يبقي حذاؤك فارغًا أبدًا في ليلة عيد الميلاد».

صَمتَ. لن ينسى هو أيضًا هذا أبدًا ما عاش.

«سنسافر كثيرًا. وماما لن تحتاج بعد الآن إلى العمل، وأخواتك أيضا. هل مازلت تحافظ على الميدالية المرسومة عليها صورة أحد الهنود؟».

فتّشت داخل جيوبي ووجدت الميداليّة.

«حسن جدًّا. سأشتري ساعة أخرى وأضع فيها الميدالية. ذات

يوم ستكون لك..».

«*بورتوجا، هل تعلم ما هو، carborundum؟*».

كان بابا يتكلّم، من دون توقف.

كان خدّه المُلتحي الذي يُلامس خدّي يؤلمني. وسبّبت لي الرائحة المُنبعثة من قميصه المُستعمل الغثيان. تركت نفسي لأنزلق من على ركبتيه وذهبت حتى باب المطبخ. جلستُ على درجة السلّم ونظرت إلى الأضواء تتلاشى في الحديقة. تمرّد قلبي من دون غضب. «ما الذي يريده هذا الرجل الذي وضعني فوق ركبتيه؟ إنه ليس أبي. أبي مات. قتله المانجاراتيبا».

لحق بي أبي، ولاحظ بأن عينيّ قد اغرورقتَا بالدّموع من جديدٍ.

«لا تبكِ، يا صغيري. سنحصل على بيت كبيرٍ جدًّا. ونهر حقيقيّ يمرّ خلفه مباشرةً. يوجد الكثير من الأشجار، وهي ضخمة جدًّا، ستكون كلّها لك. تستطيع أن تصنع أراجيح».

لم يكن يفهم. لم يكن يفهم. أبدًا لن تكون هناك أي شجرة جميلة بقدر ما كانت عليه الملكة شارلوت.

«ستكون أوّل من يختار الأشجار».

كنت أنظر إلى قدميه، وقد برزت الأصابع من شبشبه. كان شجرة. لكنه شجرة لا أكاد أعرفها.

«مازال هناك أمرٌ آخر. لن يقطعوا قريبًا جذع شجرة البرتقالات الحلوة الصغير وحين يقطعونه، ستكون أنت بعيدًا، لن تنتبه للأمر».

تعلّقت بقدميه وأنا أبكي.

«هذا لا يفيد، بابا، هذا لا يفيد..».

وهمستُ كالمشلول وأنا أرى عينيه وقد اغرورقتَا هما أيضًا بالدّموع:

«لقد سبق وأن قطعوه، بابا، منذ أكثر من أسبوع، قطعوا جذع شجرة برتقالاتي الحلوة».

اعتراف أخير

مرّت السّنوات، عزيزي مانويل فالداريس. عمري الآن ثمانٍ وأربعون سنة وأحيانًا، في حنيني، يجتاحني شعور بأنني ما زلتُ دائمًا طفلاً. بأنك ستظهر فجأةً وتجلب لي صور النجوم أو كريات. إنه أنت من علّمني رقّة الحياة، عزيزي بورتوجا. الآن، جاء دوري في توزيع الكريات والصور، لأن الحياة من دون الحنان لا تساوي شيئًا ذا بالٍ. أحيانًا أنا سعيد بحناني، وأحيانا أخطئ وهذا كثير الحدوث.

في ذلك الزمن. زمنِنا، لم أكن أعرف بوجود أمير مجنون، «الأبله»[1] سبقنا بسنوات كثيرة وهو جاثٍ أمام مذبح إحدى الكنائس يسأل الأيقونات وقد اغرورقت عيناه بالدموع: «لم نروي الأشياء للأطفال؟».

الحقيقة، عزيزي بورتوجا، هو أنّهم قد رووها لي في وقت مبكّر جدًّا بالنسبة إليّ.

أديوس!

أوباتوبا، 1967.

---

(1) الأبله إشارة إلى رواية دوستيوفيسكي.

صدر مؤخّرًا عن دار مسكيلياني

فوضى الأحاسيس

المؤلّف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: ميساء العرفاوي

ماذا ستفعلُ في اللحظة المفصليّة الّتي ترى فيها شريطَ حياتِك كلّهُ؟ وفيمَ ستفكّر وقد استوى تاريخُكَ الشخصيُّ مجموعةً من الصّور تحدّدُ سيرتكَ الرّسميّة؟ رُبّما ستقول: هذه حياة شخص آخر لا يُشبهني.

يُربكك اسمُكَ وملامحُك القديمة. تربكُك الإشارات إذ تؤكّدُ أنّكَ عشتَ كلّ هذا. وفي المسافة الفاصلة بين ما كان وما أمكنَ لهُ أن يكون، في تلك الثانية الّتي يشتغلُ فيها عقلُك وذاكرتُكَ بسُرعة رهيبة، تنتفضُ حواسُّكَ وتتداخلُ مشاعرك، وكمن يُشاهد فيلمَ حياتِه ويعرف أنّهُ ليس باستطاعته تغيير أيّ تفصيل من تفاصيله، تتّجهُ إلى الشاشة وترجعُ منها بقبضة مهشّمة سيكفيك الدم المتقاطرُ منها لكتابة قصّتكَ الحقيقيّة.

هنا ينتقمُ الهامشُ من المركز. وهنا، تمارسُ الأحاسيسُ فوضاها الجميلة: فوضى زفايغ وشخصيّاته، وفوضى القارئ وهو يتتبّعُ مسارها بحذر.

ناظم بن إبراهيم

رسالة من مجهولة

المؤلّف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: أبو بكر العيّادي

. كنتُ دومًا منبهرةً بقوّة هذا النّصّ، بجماله اليائس، بعمقه ونضجه. هو قصّةُ قلبٍ ظلّ على أهبة الاستعداد للحبّ والموت، قلب لم يحدّه شيء كان يفنى ببراءة وإلهام، قصّةُ قلبٍ مشرق وهو يحكي، ويتعرّى أمام رجل معشوق، حياةً بأكملها. نرى الزّاوية تكبر أمام ناظرينا، وتتعلّم الحبّ بكلّ اعتداد، بكلّ سرور، ثمّ نرى الجنون يتربّص بها، ويصيبها إلى الأبد.

حينما كان فرويد والتّحليل النّفسيّ يبهران النّاس كان زفايج يرسم ملامحَ حبٍّ مدمّرٍ يراقص الموت. فهو يقول لنا إنّنا لا نمتلك مُطلقًا أيَّ أحد، وإنّ العشق المفترس من جانبٍ واحدٍ يُصيبنا بالجنون، ويقودنا إلى القبر...

في هذا الحبّ الميتافيزيقيّ العنيد من النّقاء ما يجعله متيقّظًا مُمتعًا، مثل سرٍّ يُهدّئ من روع العاشقة ويُنشئها إنشاءً. في هذا الحبّ صدًى حميمٌ يُرجّع في كلّ واحدةٍ منّا، زفرةً عذبةً مُضنية رهيبة تقودنا إلى أشدّ شياطيننا انفلاتًا..

فحين لا نتعرّف إلى أنفسنا لا يتعرّف إلينا أحد.

الممثّلة الفرنسيّة إيلزا زيلبارستاين

ماندال بائع الكتب القديمة

المؤلِّف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: أبو بكر العيّادي

في هاتين القصتين، يرسم زفايغ بلغة الفن أثر الحرب حتى في من لم يشارك فيها، من خلال شخصيتين فريدتين، كلتاهما حبيسة عالم خاص بها وحدها.

مانديل، بطل القصة الأولى،عجوز ليس له من دنياه غير الكتب، مهووس بها هوسا صار بفضله مرجعا لكل طالب وباحث في فيينا وخارجها، يحفظ عن ظهر قلب عناوينها، وأسماء ناشريها، وأسعارها جديدةً ومستعملة، ولا يكسب من ذلك غير ما يقيم الأود. عاش حياته في شغل تام عما يجري من حوله، فلم يعلم أن النمسا التي لجأ إليها شابّا، كانت تخوض حربا ضروسا ضد بلاده روسيا.

وهرمان، بطل القصة الثانية، عجوز ضرير يملك تشكيلة أعمال فنية جمّعها من عرق جبينه، ثم ألزمه فقدانُ بصره البيت، فلم يعد يدري أن الحرب التي تجيئه أصداؤها عن بعد قوّضت الاقتصاد الألماني، وأن التضخم المالي أرغم أسرته على التفريط في لوحاته بأثمان زهيدة لضمان القوت.

نصّان مؤثران يعكسان مأساة الإنسان في عالم يتهاوى، كان زفايغ شاهدًا على انحداره، ومُنذرًا بما سيحيق به من دمار أشمل.

أبو بكر العيّادي

الخوف

المؤلّف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: أبو بكر العيّادي

لقد استطاع زفايغ، بما له من قدرة على سبر أعماق النفس الإنسانية، أن يخلق عملاً بالغ التشويق، يجعل القارئ يلهث مع البطلة، الساعية إلى حلّ يتمنّع عليها، حتى صارت كالسائرة إلى حتفها بظلفها، منساقة وراء قدر غامض لا تعلم من سطّره إلا حينما شارفت على وضع حدّ لحياتها اتّقاءَ الفضيحة والعار.

إنّها حكاية امرأة من داخل الوسط الأرستقراطي ملّت حياةَ الرتابة فرامت المغامرة، وخلعت أغلالها، لتجد نفسَها مكبّلة بأغلال جديدة. وبين نداء الذات وسطوة المجتمع خيطٌ مشدود على الهاوية تقف عليه البطلة مسكونة بالرعب وحيدةً لا أحد يشاركها حالها غير زفايغ وهو يعاين هشاشة الإنسان وتقلّباته.

في هذه القصة، التي تحولت منذ العشرينيات إلى أفلام سينمائية عديدة، أشهرها من إخراج روبرتو روسلّيني وبطولة إنغريد برغمان، نجد الثيمات التي شغلت زفايغ، كالموت، والخوف من الفضيحة والعار، والاعتراف، والصفح. وكعادته يبرع زفايغ في تصوير ما يعتمل في النفس من ضرام تصويرًا ينمّ عن سعة تجربة ونفاذ بصيرة.

أبو بكر العيّادي

الشمعدان المفقود

المؤلّف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: وليد أحمد الفرشيشي

في رائعته «الشمعدان المفقود»، يتقصّى زفايغ، في أسلوب ملحميّ، رحلة الخروج الكبير وراء كنز الكنوز، شعلة الربّ، الشمعدان المفقود أو باختصار لا يخلو من الرهبة: «المينوراه».

في هذه الرواية المربكة والعجائبية في آن واحد، يقدّم لنا زفايغ، بما تحتويه ذاكرته الشفوية والسرديّة، وبما يمتلكه من قدرةٍ على الحفر في أعماق النفس البشريّة، شهادةً مهمّة عن رحلة اقتفاء الشمعدان الذي نهبه الوندال، إبان النهب الكبير لروما. رحلة من نوع آخر لم تدونها أسفار التوراة، وإن استلهمت أساساتها البنيوية والسردية، من الشمعدان السباعي نفسه، أو المينوراه، شعلة الرّب.

روايةٌ تقدّم فكرة الخلاص بشكل آخر. والخلاص عند زفايغ لم يكن أبدًا في ذلك المقدّس المفقود وإنما في تلك الرحلة الطويلة التي يقومُ بها الإنسانُ بحثا عن الأمل في أزمنة الرعب والخوف والانهيارات المتسارعة.

وليد أحمد الفرشيشي

السرّ الحارق

المؤلّف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: عبد الكريم بدرخان

حين يقطع الحطّاب شجرةً ليتدفأ بها، لا يفكّر في العصفور الذي يحرمه دفء عشّه بين أغصانها، ولكنه يشفق عليه إذ يراه مقرورًا يناجي وهجًا كاذبًا خلف نافذته. كذلك هو الإنسان في تعامله مع أخيه الإنسان، لحظة تستبدّ به شهوة التملّك، وتتضخّم فيه نرجسيّة الذات. حطّاب لا تصمد أمامه أصلب الأشجار، ولا هو يهتمّ بما يسقط من فراخ.

لم يتوقّفْ ستيفان زفايغ طوال مسيرته الإبداعية عن الحفر في باطن الذات الإنسانية ومكاشفة أدقّ خفاياها وأعنف انفعالاتها كالحبّ والشغف والقلق والخوف والكراهية والحقد... وبلا مواربة أو إيهام يضعنا أمام الحقيقة، وهو يصوغها في رواية «السرّ الحارق» على لسان طفل في الثانية عشرة من عمره لمّا يبلغ الحلم. وعندما يتوقّف النضج عن أن يكون معيارا للحكم على الأشخاص، تتكشف لنا الحياة من زوايا نعجز عن بلوغها أو حتى عن إدراكها إدراكًا مجرّدًا.

تحوّلتْ هذه الرواية إلى فيلمٍ سينمائيّ ثلاث مرّات، كانت الأولى عام 1933 وحينها منعت الحكومة النازية ممثّلة بوزير الدعاية جوزف غوبلز عرضَ الفيلم في الصالات الألمانية. الثانية عام 1977، والثالثة عام 1988.

بلال المسعودي

الصبيّة والسيجارة

المؤلّف: بونوا ديتيرتر

البلد: فرنسا

ترجمة: زهير بوحولي

«الصبيّة والسيجارة» علامة من علامات أدب الديستوبيا (أدب المدينة الفاسدة) في القرن الحادي والعشرين، ولكنّها دستوبيا ساخرة تُعرّي بخفّةٍ تهافت عالمٍ من المُثل والأحلام والقيم حتّى تغدو الخفّةُ صنوًا للثقل ويصبح الكائن لا يُحتمل.

رواية نُشرت سنة 2005 ومع ذلك فقد بلغت حدّ التنبّؤ العام والتفصيلي أحيانا بما سيحدث في سورية مثلا في السنوات الأولى من العشرية الثانية إذ يصوّر الكاتب مشاهد لهو الإرهابيين السينمائي بضحاياهم مسجّلا سبقا سرديا وحدسيا لما سيشاهده العالم بأسره بعد ذلك على شاشات التلفاز.

تنقذ سيجارةٌ حياةَ محكوم عليه بالإعدام فيخرج من غياهب السجن إلى ساحات المجد والشهرة بدعم من لوبيات صناعة التبغ، وتقلب سيجارة حياة موظّف رأسا على عقب فيتهاوى إلى الدرك الأسفل. وبين هذا وذاك رسائل عديدة يبعث بها الكاتب: إدانةُ النفاق الاجتماعي إذ يكرّس شعارات «العناية بالطفولة» محلّ «الأفكار الشمولية». والدعوةُ إلى الاهتمام بأنموذج بشريّ كاد يلفّه النسيان: الرجل الكهل المنتج، تتغذى الإنسانية من لحم كتفيه ولا يغنم غير الإهمال.

وهذا أيضا سوف يمضي

المؤلفة: ميلينا بوسكيتس
البلد: إسبانيا (كتالونيا)
ترجمة: نهى أبو عرقوب

«لسببٍ مّا غريبٍ، لم أفكّر يومًا في أنّني سوف أبلغُ الأربعين من العمر. في سنّ العشرين، كنت أتخيّل نفسي في الثلاثين أعيش مع حبّ حياتي محاطةً بكثير من الأبناء، أو في الستّين أعدّ كعكة التفاح مع أحفادي، أنا التي لا أجيد قلي بيْضة، لكنّني قد أتعلّم. أو حتّى في الثمانينَ عجوزًا هرمةً تشرب الوسكي مع صديقاتها. غير أنّي لم أتخيّلْ نفسي مُطلقًا في الأربعين، ولا حتّى في الخمسين. وهأنذا اليومَ، في جنازة أميّ، وعلاوةً على ذلك، في الأربعين من العمر. لا أدري كيف وصلتْ بيَ الأمورُ إلى هذا الحد...»

هكذا تُفتتح الرواية إذ تفيق البطلة على نبأ وفاة أمّها، تلك المرأة التي لم تكتشف شدّة تعلقها بها وتأثيرها في كامل تفاصيل حياتها إلاّ بعد فقدانها، وكأن الموت منبه يدقّ ساعة الخروج عن الطور الأموميّ، فتطفق الشخصيّة تبحث عن ذاتها بين من بقي لها في الحياة، عشّاقًا وصويحبات وأبناء.

«وهذا أيضًا سوف يمضي» رواية مسكونة بأسئلة الزمان تعرّي الإنسان وتفضح هشاشته لتضعه في مواجهة مصيره، فلا شيء يبقى على حاله، ويحافظ على حقيقته سوى الغياب.

بلال المسعودي

قطار اللّيل إلى لشبونة

المؤلّف: باسكال مرسييه
البلد: سويسرا
ترجمة: سحر ستّالة

لِيّا

المؤلّف: باسكال مرسييه
البلد: سويسرا
ترجمة: سحر ستّالة

الرسّام تحت المجلى

المؤلّف: أفونسو كروش
البلد: البرتغال
ترجمة: مها عطفة

ليلة النّار

المؤلّف: إريك إيمانويل شميت
البلد: فرنسا
ترجمة: لينا بدر

الأرض المنخفضة

المؤلّفة: جومبا لاهيري
البلد: أمريكا (من أصول هنديّة)
ترجمة: يارا البرازي

خوسيه ماورو دي فاسكونسيلوس

شجرتي شجرة البرتقال الرائعة

من هذا الطفل الذي يناديه الجميع بالشيطان الصغير ويصفونه بقط المزاريب؟

وأيّ طفلٍ هذا الذي يحمل في قلبه عصفورًا يغني؟

"شجرتي شجرة البرتقال الرائعة" للكاتب خوسيه ماورو دي فاسكونسيلوس عمل يُدرّس في المدارس البرازيلية وينصح الأساتذة في المعاهد الفرنسية طلبتهم بقراءته...إنه عمل مؤثّر وإنساني على لسان شاعرٍ طفلٍ لم يتجاوز عمُره خمس سنوات... عمل لا يروي حكاية خرافية ولا أحلام الصغار في البرازيل فحسب، بل يروي مغامرات الكاتب في طفولته، مغامرات الطفل الذي تعلم القراءة في سن الرابعة دون معلم، الطفل الذي يحمل في قلبه عصفورًا وفي رأسه شيطانا يهمس له بأفكارٍ توقعه في المتاعب مع الكبار...

هذه رواية عذبة عذوبة نسغ ثمرة برتقال حلوة... رواية إنسانية تصف البراءة التي يمكن لقلبِ طفلٍ أن يحملها وتعرّفنا إلى روح الشاعر الفطرية... حكاية طفل يحمل دماء سكّان البرازيل الأصليّين، طفل يسرق كل صباح من حديقة أحد الأثرياء زهرةً لأجل معلّمته... وهو يتساءل بمنتهى البراءة: ألم يمنح الله الزهور لكل الناس؟

إيناس العباسي

ISBN: 978-9938-992-71-7



